

# السما والارض

## رحلة في المعتقدات العالمية والخيال الأسطوري والفولكلور بحث انزوبولو سي جي تحليلي

د. أحمد ديب شعبو

تمهيد :

الارض هي المادة العالمية التي انفصلت عن الماء، حسب «سفر التكوين» وجعلها خنزير الإله فيشنو Vishnou البري تطفو على سطح المياه الأولية، وخرها (جمدها) ابطال شينتو Shinto الاسطوريون. وهي انثى وأم، ومنها تنشأ كل الكائنات، كما انها العذراء التي تحترقها المعزقة او المحراث، وتخصبها المطر او الدم، وهما بذار السماء ومنها. وهي الرحم الذي تتمخض فيه الينابيع والركاز والمعادن. تهب الحياة وتسلبها (Tellus Mater)، لأنها المصدر الأولي والملجأ الأخروي. يصرخ أيوب في التوراة: «عارياً خرجت من بطن الأم، وعارياً سأعود إليه» (كتاب ايوب، 21,1)، ذلك انها تحمي مخلوقاتنا من الفناء كما يصفها الهندوس في شعيرة دفن الوعاء الذي يحتوي على بقايا تحريق الجثة: «اذهب تحت الأرض، أمك،

إلى المقامات الشاسعة، والمراعاة الطيبة!

وهي لطيفة كالصوف مع من عرف العطاء،

لعلها تحميك من الفناء!

اجعلي نفسك قبة له، ولا تسحقه،

تقبله، ايتها الارض، استقبله!

وغطيه بجزء من ثوبك، كما تدود أم عن ابنها.

(Rig Veda, Grhyasutra, 4, 1.)

وتعني لفظة «آدم» بالعبرية «الاحمر» وآدماء Adamah «التراب» او «الطين الاحمر»، فكان انتيوس Anteus

الإغريقي ابن الأرض يغتذي منها، ويجدّ قواه باحتكاكه بأديمها واتصاله بجذورها، وفي سياق هذا الترابط الذري بالأرض ينبغي التنويه بعادات بعض القبائل الأفريقية التي تأكل الأرض بغية «تحقيق الذاتية»، وسعيًا وراء تقمص نفسي مع الأرض الام (Symbole d'identification) لأن الحياة والحرارة تتولدان من التراب الملتهم، فيقال تبعاً لذلك: «البطن يشتعل»، لذلك يتذوّقه الكاهن اثناء الأضحيان، وتبتلع حفنة منه المرأة الحامل، لذلك أيضاً تلجأ الشعوب البدائية إلى «الدفن الطقوسي» في جوف الأرض (أو في حفرة) إما طلباً للشفاء أو لتحقيق معتقدات مسارية. لكن هذه الأم المغذية تطالب بدورها لتغذي بهم، فيتشابك في امومتها عامل الإفناء مع عامل التكوين (كما في عيد الذرة عند قبائل الاستيك المكسيكية، والخوند البنغالية وسنعود الى تفصيل ذلك لاحقاً). ويُعتقد ان الأرض محمولة على ظهر حوت او سمكة ضخمة (كما في التراث الشعبي الاسلامي، وفي اليابان)، او على ظهر سلحفاة (كما في الهند)، او ثعبان (كما عند القبائل الاميركية) او جُعران (= جُعل، جنس من الخنافس، كما في مصر)، او على ظهر فيل (جنوبي شرقي آسيا) . . . وتنسب العقلية البدائية الزلازل الى تحركات عنيفة ومفاجئة لهذه الحيوانات الإراضية (géophores)، تتوافق مع مراحل تطورها، ومن اوجه رمزية الأرض الاسطورية العالمية أيضاً «الأرض المقدسة» او مركز العالم ومحوره الروحي، والذي يعكس بدوره المركز الأصلي للكون (أو مركز الفردوس الضائع، حسب القوميات والشعوب)؛ ويسمى افلاطون «الأرض الطاهرة». وتُعتبر الأرض الموعودة «أحد أقطاب الفكر» (حسب تعبير دانت) كأرض كنعان بالنسبة للعبرانيين، وإيتاك Itaque لأوليس Ulysse، والقدس المساوية La Jérusalem Céleste للمسيحيين.

وتوصف الأرض غالباً بالشكل المرتب (كما في الاسطورة الصينية مثلاً، حيث ينتظم العالم في مربعات مُندجة)، وهي معيّنة بأفاقها الأربعة، ولعلّها تعارض رمزياً مع السماء كما يتناقض المبدأ السلبي مع المبدأ الإيجابي، والشكل الأثني مع الشكل الذكري للتجلى، أو كما تتناقض الظلمة مع النور، والين مع اليانغ Yin Vs Yang في الطاوية، والكثافة، والثبات والتركيز، من جهة، والطبيعة اللطيفة المتبخرة، والذوبان، من جهة أخرى (نظرية أبي يعقوب السجستاني). وترمز الأرض الى نزعة الهبوط في مقابل رمزية الصعود المساوية. والأرض تدعمُ وتسندُ، بينما السماء تُغطي. وبصفتها الام الكونية الاولى، فقد كانت السماء (اورانوس) اول شهاها (توالد عُذري)، ثم ما لبثت السماء - الأب ان اقترنت بها (إهاق نشكُوني) لتُنجب الآلهة والعالم. وقد كان هذا القرآن الأصلي النموذج الازلي الذي قلّدت الآلهة والبشر وسائر الكائنات الحية في ما بعد. ولما كانت الأرض مصدر غذاء المجتمع فقد اعتبرت العقلية البدائية راعية القوانين والاخلاق وكافلة الأقسام والندور، ويبدو ذلك واضحاً في القارة الأفريقية بوجه عام (قبائل الينغغو، Yahengo في السودان الفرنسي، وكولانغو Kulango في شاطئ العاج . . .).

وفي إطار الرمزية العالمية أيضاً تشير الاسطورة إلى البيضة الكونية المؤسسة التي أعطت بانشاطها الى نصفين السماء والأرض، لذلك تُمثل السماء غالباً بجرس أو كأس مقلوب، وهو يرمز إما إلى وعاء الغنى والوفرة، أو إلى وعاء اوكسير الخلود، وهذا الجرس، أو الكأس، هو النصف العلوي والمعكوس للقوقعة السديمية، وهو القبة والغطاء والطلّة (سُراقق dais) أو المظلة الكبيرة واليامة والشمسية ذات الجذر الوتدي (التي تدور حول محورها)؛ وعلى صعيد رمزي باطني تُشبه السماء بقلب الانسان. والسماء هي مجال النظام الكوني المقدس الذي يتجلى في

حركة الكواكب الدائرية المنظّمة، وفضائها اللامحدود وموضوعات العوالم الغيبية والمجهول. وتعرّفها الميثولوجيا الصينية بأنها المبدأ المذكر النشط الذي يتناقض (ويتفاعل) مع الارض الانثى المستكنة والمستسلمة، وهي ليست المبدأ السامق بل قطب تجليه الإيجابي، و«أداة المبدأ» الذي ترمز إليه «قبة السماء» (T'ien—Ki) كما يحلّل تشو وانغ - تسو Tchouang—Tseu. والإنسان ابن السماء والارض» او «جنين الكائن الخالد»، حسب رمزية خيميائية باطنية L'Embryon de l'Immortel ونجد تعريفاً قريباً منه في الاسرار الاورفية، والحكمة الصينية حيث يقرّر يي - كينغ Yi—King ان الإنسان السامي او «الحقيقي». «نظير ابويه، ولا يتعارض معها في شيء»، وانه يتحقق على الارض في الامبراطور الذي يلعب دور الوسيط بين العالمين السايوي والارضي، فالسما اب ملوك واسياد الأرض، وهي فكرة استمرت آثارها طوال عهود الملكية الحديثة في الغرب (الملك هو خليفة الله، وهو ملك بنعمة الله وإرادته، وطاعته مرتبطة عضواً بطاعة الله... وبذلك تنتظم التسلسلية الأرضية بحسب غط النظام السايوي، فكان ختم جنكيزخان يحمل العبارة الشهيرة: «إله في السماء، وخان على الأرض». ختم سيد الأرض». وبانقلاب المفاهيم القيم مع تعاقب الازمنة التاريخية يُصاب الرمز بالتحريف والإفساد دون ان يُنقصه ذلك شيئاً من قوّته الأصلية.

وليس السماء دائماً المبدأ المذكر (السماء - الاب والسماء - الفكر)، بل تتحول احياناً، كما في الميثولوجيا الفرعونية، إلى مبدأ مؤنث هو مصدر كلّ تجلّي في الكون. لذلك تتجسّد في صورة الإلهة نوت Naut المنحنية بشكل قبة. ونجد الترميز ذاته على تنوء ناووس يرجع إلى السلالة الثلاثين، فهي منحنية بشكل رواق روماني، تلمس يداها الأرض في الشرق، وتنطأ قدمهاها الاديوم في الغرب، ويقع في داخل الرواق رسم العالم بأمصاره وأعماقه الديماسية وشمسه المشعة. فهي تغطّي بانحناءتها نصف الدائرية (والتي تجوبها الشمس) الكون بكامله، وبمستوياته الثلاثة، وتدعى ام الآلهة والبشر. وفي متحف اللوفر، يقرأ الباحث ما تقوله السماء بحنان الأم لأحد الاموات:

لقد قبلتلك امك نوت بسلام. وهي تضع ذراعيها وراء رأسك كل يوم، وتحملك في النعش وتحفظك في جبل المأتم؛ وتدود عن جسدك بامتياز... كما يتصوّرها المصريون القدماء ايضاً في شجرة الجميز (= تين فرعون) وهي تسكب المياه السايوية على الارواح لتجدّدها.

وتتكون السماء من طباق يتراوح عددها بين السبعة والتسعة بوجه عام، حسب الاديان والميثولوجيات العالمية. وهي تُعين دائماً جغرافية العالم السايوي، ومدارج السالكين والعارفين، كل حسب مرتبته الروحية، وتتكرر هذه الرمزية من البوذية حتى الإسلام، ومن دانت إلى الطاوية الصينية.

هكذا تبدو لنا السماء والارض في مقاربة اولى مجمع رموز القداسة، ومتحف الظواهر الكونية المؤسسة، ومستودع المصائر البشرية، ومجال الكون والفناء، وترميز الالهية ونظامها، وطقوسها... وقد اردنا في هذا البحث ان نقوم برحلة في الاساطير والرموز والمعتقدات العالمية التي تدور حول هذا المحور الثنائي. لعلنا نساهم بذلك في إثراء المخيلة العربية وتدعيم طاقاتها الإبداعية، وهل من شيء اكثر تشويقاً للانسان من معرفة اصوله الميتافيزيقية، وفرضيات نشوئه ومصيره، واسرار علاقته بالكون وسائر المخلوقات، واعماق عالمه الارضي، وآفاق عالمه السايوي؟

## I- في رمزية السماء الاسطورية والفولكلورية

يمكن القول إن معظم الابحاث التي خُصّصت لدراسة اصل فكرة الالهية، ومنها بوجه خاص تلك التي صدرت عن مدرسة فيينا (وعلى رأسها ب. ق. شميدت Schmidt) حاولت البرهان على وجود مفهوم توحيد اصلي يرتكز على آلهة السماء في المجتمعات البشرية الاكثر بدائية. ولعلنا نقع على إجماع عالمي في الاعتقاد بكائن إلهي ساوي، تصفه النصوص بأنه خالق الكون ومسؤول عن خصوبة الارض بفضل المطر الذي يرسله عليها. وإذا كانت الصلاة الأكثر انتشاراً في العالم اليوم تتوجّه إلى «ابينا الذي في السماء» فإن أقدم صلاة عرفتها البشرية كانت كذلك. ولا حاجة بنا للرجوع الى الإطار الاسطوري كي تبدي لنا السماء قوتها وقديستها واستعلايتها التي تبرز مباشرة لكل مشاهد ومتأمل ومتعبّد. فالسما تشير الى الواقع المطلق والديمومة، وهي معاني شديدة الاتصال بتلك المناطق والأفاق الساحقة والمستعصية على الانسان، وكأنها تكتسب بالبداهة ألفاً وتوهجاً إلهيين. وهي مكان إقامة الآلهة، والأفق الذي يصله فقط بعض ذوي الخطوة بواسطة تقنيات سحرية وشعائر دينية، والذي تصعد إليه، حسب معظم الاديان، ارواح الموتى، إن رمزية السماء تبدو بذلك من المعطيات المباشرة للوجدان الكلي الانساني، إذ يكتشف الإنسان طبيعته البشرية، ويتعرّف إلى موقعه من الكون، وهذه الكشوفات الاولية تتصل بشكل عضوي بدراما الوجود البشري، مؤثرة بعمق في نشاطه اللاواعي، وفي ترجمة حياته الروحية الأكثر رفعة وسمواً.

### ● قدسية الجبل، طقوس الصعود الى السماء والطيران إلى مقر الآلهة وعالم السعادة والارواح

تمنح السماء غالباً رمزية علوها الشاهق الى الجبل الذي يتصل بالسماء في ارومته، فهو العالي والعمود والسامق، . . . وهو مقر الآلهة وشاهد ظواهر القدسية الجوية. . . وجميع ميثولوجيات العالم لها جبالها المقدسة التي يمكن اعتبارها تغييراً متنوعاً ومتعدّد الاوجه على الالوب الاغريقي. ولآلهة السماء امكنة لشعائرها في أعالي الجبال. فالجبل هو مكان التقاء السماء والارض، وهو المركز الذي يمر عبره محور العالم (Axis Mundi) المقدس، حسب المعتقدات السائدة في بلاد ما بين النهرين. وفي الميثولوجيا الهندية ينتصب جبل مرو (Meru) في وسط العالم وترعى فوقه النجمة القطبية وتُشبه الاماكن المقدسة من معابد وقصور ومدن بالجبال والمناطق المرتفعة، كجبل طابور وجريزيم في فلسطين التي يصفها نص عبراني قديم بأنها المعان الأكثر علواً في الكون والذي لم يطله الطوفان. ويقع جبل الغولغوثا (Golgotha) في وسط العالم ايضاً، حسب المعتقدات المسيحية، ولعله المكان الذي وُلد فيه آدم، وفيه دُفن، ونجد عند الكسائي، وفي نصوص صوفية إسلامية كثيرة، ان الكعبة هي اعلى مكان في الكون، وانه يستدلّ على ذلك من النجمة القطبية<sup>(1)</sup> ويضيق بنا المجال لدرما للسماء من اهمية في إثارة وبعث رؤى الصعود الطوبائي والديني - السحري في ارجاء الفضاء وطبقات الاثير الشاهقة. وتشكّل هذه الرؤى معتقداً شرقياً ساهمت الفيتاغورية والاروفية<sup>(2)</sup> بنشره في العالم الاغريقي واللاتيني، ويجده الباحث في مجمل الديانات القديمة والحديثة، في الشعيرة الشبانية<sup>(3)</sup>، وفي طقوس المسارة، وفي الانشاده الروحاني والرؤيا الحلمية، وفي الاسطورة الأخروية والخرافة

البطولية، . . . وتدهشنا هذه الرغبة البدائية (والغريزية) بتخطي الجسدية والوضع الانساني، للدخول في مستويات كونية عليا والسمو بالجسد الى مرتبة الروح والفكر. وتودر اساطير عالمية كثيرة حول الحنين الى الفردوس الضائع في ازمة غابرة سحيقة كانت خلالها السماء والارض متداخلتين، وكان بالإمكان الاتصال بالسماء بسهولة تفوق الوصف بواسطة جبل او شجرة، او مرقاة او عارشة او طير، وبانقضاء ذلك العصر الذهبي للبشرية انقطعت هذه الوسائل وانتهى الزمن الفردوسي وبدأت الانسانية عهدها الحالي. وهي اساطير منتشرة في اوقيانيا وآسيا الجنوبية - الشرقية، ولعلها تتصل بحضارات نسبوية. ويحاول العراف الشمالي بطقوسه السحرية ان يستعيد ذكرى عهد الحرية والسعادة (قبل «الخطيئة» إذا صح التعبير، أي القطيعة بين السماء والارض) ويؤكد عرافو قبيلة بكايري البرازيلية (Bakairi) ان السماء «ليست اعلى من سقف بيت»، وانهم يصلون إليها بلمح البصر<sup>(4)</sup>. ويكثر من التمجيص والتقصي يحاول بعض الإناسيين المقاربة بين صورة الفردوس البدائي ونظيرتها في الدين المسيحي. فالفردوس المسيحي تحيط به السنة اللهب او تحرسه ملائكة مسلحة بأسياف ملتفة، كما يذكر القديس لاكتنس والقديس توماس (St. Lactance, St. Thomas). وبالمقابل يُعتبر العرافون الشمانيون «اسياد النار» فهم يتلعون اللهب اثناء القيام بطقوسهم السحرية، ويلمسون الجمر المتأجج ويمشون على النار، لأنهم يرون بمنطقهم البدائي أن في ذلك دلالة على بلوغهم مرتبة الأرواح التي تتميز عن البشر بطاقة مقاومتها للنار، وبعدم قابليتها للاحتراق أي أنهم يتخطون الوضع البشري الذي كان نتيجة «الهبوط» من الفردوس السماوي، بالنسبة للعقلية البدائية كما بالنسبة للمفهوم المسيحي. هل يُستساغ بعد ذلك القول بأن العراف الشمان (أو من يماثله من البدائيين) مجرد معتوه او مشعوذ يمارس السحر والتنجم والكهانة؟<sup>(5)</sup>.

يذكر الإناسي هوكار (A.M.Hocart) الدور البارز الذي تلعبه رمزية «الطيران» السحري في ظاهرة الملوك - الآلهة عند البدائيين. وإذا كان ملوك آسيا الجنوبية - الشرقية واوقيانيا يحملون على الأكتاف في ذلك إلا لأنهم يتحدثون في هويتهم مع الآلهة، وينبغي تبعاً لذلك أن لا تطأ أقدامهم الأرض وأن «يطيروا في الهواء»<sup>(6)</sup>. ويعتقد بكرمن (Bickermann) أن تاليه الامبراطور الروماني في العهود القديمة كان يرتبط بصعود من هذا القبيل، واستطاع فيدنغرن (G.Widengren) أن يثبت استمرارية هذا النمط الرمزي الخرافي في الايديولوجية الملكية في الشرق الأدنى القديم عبر قرون طويلة<sup>(7)</sup>. وبحث لوفر (B.Laufer) في دراسة مشبعة بالوثائق صورة «الطيران» الرمزي في الصين مبيناً أنها كانت تشكل حاجساً، وترجم بخرافات لا تقع تحت حصر تدور حول العربات وأنواع أخرى من الأجهزة والمعدات الطائرة<sup>(8)</sup>. وهكذا نجد كيف كان يُعرف الكاهن الطاوي «بالعالم ذي الريش»، أو «الزائر المزود بالريش»، وأنه للتعبير عن ظاهرة الصعود إلى السماء بالطيران يقول اتباع الطاوية: «بواسطة ريش الطير تحول وصعد (إلى السماء) مثل كائن خالد»<sup>(9)</sup>. ولم يكن الطيران في السماء محصوراً بطبقة الملوك، بل نجده يُنَاط بالحُكَّاء والسُحرة والزُهاد والعرافين وغيرهم، رغم أنهم لا يدعون الألوهية او يطمحون إليها، بل يكتفون بالانتساب إلى عالم الأرواح والكائنات النورانية غير المنظورة. ويخصّص مرسيا ألياد بحثاً هاماً ومستقلاً لدراسة هذه الظاهرة<sup>(10)</sup> ويخلص الى استنتاجات هامة منها (1) أن الطيران السحري يعبر تشكيمياً عن طاقة بعض الأشخاص من ذوي الخطوة الذين يستطيعون ترك أجسادهم طوعاً والسفر بالفكر في «العوالم الكونية الثلاثة»، (2) ولعلهم يقومون بذلك لجلب روح

الحيوان المضحى به الى أعلى السماء وتقديمها إلى الإله السامق، أو للبحث عن روح المريض التي يُفترض أنها تاهت أو اختطفها الأرواح الشريرة، أو هداية روح الميت إلى مقامها الجديد. وقد يبحث العرّاف الشماني عن هذه التجربة خارج الإطار الديني الجماعي، أي لتحقيق حاجات روحية ذاتية. ولعلمهم لا يهتمون بالوسائل المادية لتحقيق هذا «الطيران» العرفاني، فهم يطبّون كالعصافير، أو يمتطون راحلة، أو تطير بهم طبولهم الطقوسية كما في سيبيريا وآسيا الوسطى وفي التبت، أو حتى في إفريقيا حيث ينذر انتشار الشمانية بالمعنى الدقيق للكلمة<sup>(11)</sup>.

وتطالعنا هذه الطقوس السماوية في التراث الروحي الهندي حيث تكثر صور ورموز «الطير» و«الاجنحة»، وحيث يُعبّر الطيران عن الذكاء، وعن إدراك الأشياء الخفية والحقائق الغيبية: «إن الذكاء أسرع الطيور»، وإن «الذي يُدرك له اجنحة» (Rig Véda, VI,9,5). وتصف نصوص بوذية أخرى الطيران من خلال سقف المنزل أو قبة القصر، مما يشير إلى تصدّع العلاقة مع العالم اليومي الرتيب والمندس. وهناك أيضاً صعود السماء بواسطة سلّم أو بمِرْقاة. ويصوّر لنا نصّ بوذي بالغ الأهمية في دلالاته على رمزية هذه الظاهرة كيف صعد بودا إلى السماء مباشرة بعد ولادته فوضع رجله بشكل مُسطّح (منبسط) على الأرض، وقام بسبع فُشخات وهو متّجه نحو الشمال ومحمّي بمظلة كبيرة بيضاء. ثم تأمل حوله جميع المناطق وقال بصوت الثور: «أنا أعلى ما في العالم؛ أنا أفضل من في العالم؛ أنا أكبر سناً من العالم؛ هذه هي ولادتي الأخيرة؛ لن يوجد كيان جديد بالنسبة لي بعد الآن»<sup>(12)</sup> إن اجتياز بودا السموات السبع ليصل إلى أعلى نقطة في الكون هو موضوعة تدخل في بنية رمزية - طقوسية مشتركة بين الهند وآسيا الوسطى والشرق الأدنى القديم. ولعل الخطوات السبع الكونية التي ظهرت في النصّ البوذي تذكّرنا بصعود العارف الشماني في سيبيريا إلى السماء بواسطة المدرجات التي يُحدثها في عموده الاحتفالي (وعدها يتراوح بين 7 و12 فجوة، وترمز إلى عدد السموات الكونية)، وبالمِرْقاة ذات السبع درجات التي يجتازها العارف في خفايا ميتر (Mithra). كل هذه الطقوس والاساطير تفترض تركيب الكون من سبع طباق متراكمة أو سموات، وهي تسمّى طرفه العلوي «الشمال الكوني» (Le Nord Cosmique)، أو «النجم القطبي»، أو «موطن الآلهة» (الجلد الأزرق، L'Empyrée)، وهي عبارات تعادل جميعها ذات الرمز، أي تشير إلى «مركز العالم» أو «وسط الكون». فالصعود نحو السماء العليا وتخطّي العالم المندس يحصل انطلاقاً من مركز مقدّس (= معبد، مدينة ملكية، شجرة طقوس التضحية التي تتطابق مع الشجرة الكونية، أو عمود الاضحية الذي يرمز إلى محور العالم، الخ.).

وتجدر الإشارة إلى أن معرفة الهيكالات في دراسة تاريخ الأديان وسائر العلوم الإنسانية هي التي تجعل إدراك المعاني ممكناً. ولا بد من فهم المعنى الأولي لرمزية الطيران في السماء قبل معرفة الخصائص المميّزة لكل تراث روحي منفرداً. وهكذا فالفرق الأساسي بين خطوات بودا وطقوس ميتر والشعائر البراهمنية والسيبيرية يتركز على اتجاهاها الديني ومتضمناتها الغيبية المختلفة. إن أسطورة ولادة بودا تكشف لنا عن تحطّي الإله لعالم الآلام والدنس، بينما تهدف الشعائر البراهمنية والشمانية إلى جعل البشرية تشارك في عالم الآلهة، وإلى أن تؤمّن للإنسان وضعاً ممتازاً بعد الموت، أو الحصول على خدمة من الكائن الأعلى، أما العارف في طقوس الإله ميتر فهو يُغامر باختراق السموات السبع ليظهر من تأثيرات كوابها الواقية، ويرتفع نحو «الجلد الأزرق». وكما هي كثيرة الشعائر الدينية التي تصعد فيها روح الميت في مسالك جبل أو تتسلق شجرة!<sup>(13)</sup>

ولا بد من التنويه برمزية الحبل كوسيلة للانتقال من الارض إلى السماء في كثير من النصوص، يقرأ الباحث مثلاً في النصوص البوذية كيف صعد بوذا في السماء لدى زيارته لمسقط رأسه، رغبةً منه في إدهاش مواطنيه «بقدراته العجيبة». وبينما هو يرتفع في الفضاء يقطع جسده إرباً تسقط على الارض مبعثرة متفرقة، وسرعان ما يُعيد جمعها وتركيبها امام انظار المشاهدين، ولعل هذه المعجزة تدخل في تقاليد المنجمين الهنود (Le Fakirisme) وبوجه خاص في «معجزة الحبل» (Le Miracle de la Corde). ونجد هذه الطقوس السحرية في ايرلندة والمكسيك القديمة وفي الصين التي يقدّم لنا ابن بطوطة غاذجاً مما شاهده فيها خلال رحلته الشهيرة، فيروي كيف يرمي الرجل البهلوان في الهواء كرة خشبية مزبونة بحبل جلدي، وإذا بها ترتفع في السماء حتى تختفي عن الأنظار، وحين يصل الحيط الى نهايته في يد الساحر يطلب هذا الأخير إلى مساعده ان يتعلّق به ويصعد إلى السماء ليلحق بالكرة. ثم يناديه عدّة مرات متوالية دون ان يتلقّى جواباً منه، فيمسك بيده سكيناً ويتعلّق بالحبل الوهمي ويختفي هو ايضاً. ثم يشاهد الجمهور مشدوهاً يديّ التابع ورجليه تتساقط الواحدة تلو الاخرى، ويتبعها جسمه ثم رأسه، وبعد ذلك يهبط الساحر منهوك القوى، متقطع الانفاس وقد تلطّخت ثيابه بالدم! إلّا انه لا يلبث ان يجمع هذه الاعضاء المنفصلة ويعيد الحياة الى مساعده نزولاً عند رغبة الحاكم، وها هو مساعده يقف على قدميه حياً يرزق!<sup>(14)</sup>

وفي التراث الفولكلوري الايرلندي نرى الساحر يقذف في الهواء خيطاً من الحرير سرعان ما يتعلّق بغيمة في السماء. ثم يدفع على هذا الخيط ارباً وكلباً ويلحق بها شاباً وفتاة، ويختفي الجميع في الغيوم، إلّا ان الساحر يكتشف بعد برهة ان الكلب افترس الارنب بسبب إهمال الفتى، فيلحق به غاضباً متسلقاً الحبل ذاته، ويقطع رأس الشاب الذي يهوي على الأرض، لكنه لا يلبث ان يُعيده الى حالته الطبيعية بناءً على رغبة الحاكم!

كذلك يتحدث العرّافون الشّائون في اوستراليا عن حبل سحري عجيب يتولّد من جسم التابع في طقوس مسارية احتفالية وسط الاناشيد وقرع الطبول، وهكذا يرى المشاهد النار لتخرج من جسم المريد بشكل خيط كهربائي او يراه يتسلق جبلاً او رأس شجرة او يطير في انفضاء بواسطة حبل يخرج منه، وإليك بمثال يسوقه لنا برندت (M.Berndt) عن ساحر من قبيلة وونغيبون (Wongaibon) يستلقي على ظهره عند جذع شجرة ويقذف بحبل يخرج من بطنه في الهواء ويتسلق عليها، رأسه مقلّبة إلى أسفل وساقاه منفرجتان بينما «يلتصق» ساعدها بجسمه، وبعد ان يصل الى ارتفاع اربعين قدماً يهبط إلى الأرض بالطريقة نفسها التي صعد بها، وبينما يستلقي من جديد على ظهره تعود الحبل إلى «الانغساد» في جسده!<sup>(15)</sup> ولعل صورة الحبل الذي يربط الكون والإنسان بالإله السايوي (او بالشمس) تطالعنا في الاسطورة الاغريقية ايضاً. ويستعملها افلاطون حين يصف الوضع الإنساني والسبيل إلى تحطّيه وتطويره، في «القوانين» وحيث يظهر الانسان في صورة دُمّة تحرّكها الآلهة بحبال خفيفة في اتجاهات متناقضة، الامر الذي يعكس الاحوال النفسية والاخلاقية الكامنة في البشرية، والتي تشدّها في الداخل كالحبال نحو الفضيلة والرذيلة، ويقرّر افلاطون ان على الإنسان ان يمثّل لضغط حبل واحد منها هو «حبل العقل الذهبي والمقدّس»<sup>(16)</sup>. لعل هذه الصورة تردّد صدى «الحبل الذهبي» الذي يشدّ به زوس كل شيء، وكل القوى الكونية نحوه، كما يذكر هوميروس في النشيد الثامن من «الإلياذة»، ويعود إليها افلاطون كرة اخرى في «الجمهورية» ليصف تماسك الكون وترباط اجزائه المختلفة ضمن وحدة منظّمة متألّفة فيتحدث عن «نور يمتد من

أعلى غترقاً السماء والأرض، نور مستقيم كالعمود، ويقرب كثيراً من قوس قزح، ولكن أكثر بريقاً وشفاء. بلغوا هذا النور بعد يوم من المشي؛ وهناك، في وسط النور، رأوا أطراف روابطه، مشدودة من هذه النقطة من السماء: لأن هذا النور كان رباطاً يَكْبِلُ السماء، كالحبال التي تُلَفُّ المراكب الرومانية القديمة الثلاثية المقاذيف، بذات الطريقة كانت تُمسك كل الافلاك الدائرة»<sup>(17)</sup>. وغني عن البيان المنحى الفلسفي - الميتافيزيقي الذي تتخذه الاسطورة الإغريقية التي تنتمي الى ميثولوجيا كلاسيكية متطورة بالقياس الى اساطير وطقوس بدائية اخرى سبق ان استعرضنا بعضاً منها. وتستمر الرؤى ذاتها في الفكر البشري عبر القرون، وتتحول وتتفاعل مع الإيديولوجيات والبيئات المختلفة، فيصوّر لنا «سفر التكوين» العبراني رؤيا يعقوب التي تعرض له مرقاة يَلُجُ رأسها في السماء وتصعد عليها ملائكة الله<sup>(18)</sup>، كما تشير بعض احاديث الرسول (ص) في التراث الاسلامي الى ان النبي محمداً (ص) رأى سُلماً يرتفع من القدس إلى السماء، تحفّ به الملائكة وتصعد عليه ارواح الصالحين نحو بارئها<sup>(19)</sup>. ويعرض يوحنا المعمدان مراحل التكامل الروحي في صورة جبل الكرم؛ ويرفع بولس الرسول حتى السماء الثالثة<sup>(20)</sup>. ويروي بورفير (Porphyre) تجربة استاذة بلوتين (Plotin) الروحية التي حملته الى السماء اربع مرات متتالية، وتكرّر هذه الرؤى في التجارب الصوفية المثيرة التي تعبر عن لحظات فريدة من الانخراط والتجلي. وقريباً منا أيضاً تجارب الخياميين الهنود واليوغيين السحرية التي تصوّر كيف يطبّرون في الهواء ويمتازون في غضون ثوان مسافات شاسعة<sup>(21)</sup>.

## ● افول آله السماء وابتعادها عن البشر.

ثمة بُنية اسطورية ساهوة اخرى لا بدّ من الإشارة إليها، تنعكس في طقوس وشعائر احتفالية عالمية، وهي ان آلهة السماء تميل إلى الاختفاء من التجارب الدينية البشرية، او انها على الأقل لا تلعب دوراً مهماً فيها، إذ تحلّ مكانها كائنات اخرى هي غالباً أكثر حسية ودينامية وخصوبة. وتبتعد الآلهة الساهوة العليا، او تنسخ في صورة آلهة الصاعقة والشمس والقمر، في حين تستمر رمزية السماء الكونية لأنها تعيّن نمطاً غير زمني او تاريخي او شخصاني (ذاتي)، ولأن وظيفة الرمزية هي تقويم الأشكال الدينية وتغذيتها، ولكن دون ان تستنفذها هذه الاخيرة، والامثلة على ذلك كثيرة في الميثولوجيات العالمية، ففي اللغة السومرية تعني كلمة «آلهة»: «دينغير» (Ding-ir) اي «المضيء» و«الساطع»، مشيرة بذلك الى ظاهرة ساهوة، ولعلها تحوير لكلمة «ساء» «آنو» (Anu) التي ما لبثت ان حلّت مكانها منذ ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد. وأصبح الإله «آنو» بعد ذلك سيّد متحف الآلهة البابلية. وتروي الاسطورة ان مكانه السماء، حيث يوجد قصره السامق في أعلى قبتها، وأنه تبعاً لذلك لم يطله الطوفان<sup>(22)</sup>. وهو يقيم فوق العرش، وله جميع صفات السلطة المطلقة بإشاراتها كالصولجان والتاج والقلنسوة والقضيب<sup>(23)</sup>. ويستمد الملك سلطته الشرعية مباشرة من «آنو»، وللملوك وحدهم الحق في ذكر اسمه. ويطلق عليه في «قانون حمورابي» تسمية «أبي الآلهة»، و«ملك الآلهة» وخصوصاً «إله السماء» و«أب السماء»، و«ملك السموات»، وليست النجوم سوى جنده<sup>(24)</sup>. وهو إله محارب، بصفته ملك الكون (لذلك فهو يدعى «سيّد السلاح» في



التوراة)، ويوافق عيده الاساسي عيد رأس السنة، اي ذكرى خلق العالم. إلا ان هذا العيد أصبح في ما بعد مخصصاً للإله مردوك الأكثر حداثة منه (إذ يعود ظهوره الى زمن حورابي، اي حوالى سنة 2150 قبل الميلاد)، ويتميز مردوك بقوته وفعاليته، فهو الذي يقتل الوحش البحري تيامات (Tiamat) ويخلق من جسده العالم، ويشغل بذلك مكانة الخالق والمُخصب، حسب الاسطورة البابلية.

ويبرز اسم الإله «اهورا مازدا» في المعتقدات الإيرانية القديمة، ويعني اسمه في اللغة «السيد حكمة»، و«عالم كل شيء»، وهو الإله الذي يسعى زرادشت لتحويل معالمة بُغية وضعه في صلب محاولته الإصلاحية. وتصفه النصوص القديمة بأنه «الواسع الرؤيا» وأنه حامي القانون والعدالة، والمسؤول عن النظام في الطبيعة والمجتمع، وصاحب السيادة المطلقة، وتعيقنا النصوص إذا ما حاولنا إكمال صورة آهورامازدا كإله سماوي، إذ يخلصه زرادشت من صفاته الطبيعية. وفي الهند يحل الإله فارونا (Varuna) مكان الإله دياووس (Dyaus) الذي يعني اسمه «الضياء» و«السما». وفي الريح فيدا (Rig Veda, I,60) يرد ذكره في التوجه الى «السما - الاب» وإلى السماء التي «تعرف كل شيء»، لكنه سرعان ما يختفي وتنتصر سلطته في الظواهر السماوية النهارية، وهي غير مقدسة، في حين يحتفظ فارونا الذي يحتل مكانه بقوة الصفات السماوية، فهو «المنظور في كل مكان»، وهو الذي «فصل العالمين» (Rig Veda, VII,86,1) وما الهواء سوى نفسه الطبيعي (R.V., VII,87,2)، إلا انه لا يلبث ان يتمسخ مكتسباً صفات القمر<sup>(25)</sup>.

ويشير مؤرخو الأديان إلى شيوع هذه الظاهرة في الأساطير الأفريقية، إذ يقع الباحث على آثار لآلهة سماوية مفرها السماء ولا أهمية لها في الطقوس الدينية الحية، فلا تلجأ إليها القبائل إلا في الحالات النادرة وزمن الوارث، ونضرب مثلاً على ذلك قبائل اليوروباس (Yorubas) في شاطئ العبيد والتي تؤمن بإله سماوي يُدعى أولورون (Olorun)، أي «مالك السماء». ولعل هذا الأخير اختفى نهائياً من العلائق البشرية والأرضية بعد أن بدأ خلق العالم، تاركاً أمر إتمام ذلك إلى إله آخر دونه في المستوى هو أوبانتلا. وجدير بالذكر انه ليس للإله أولورون معابد أو تماثيل أو كهنة تقيم له طقوساً<sup>(26)</sup>. ويذكر العالم الميثولوجي فريزر إله قبائل البنتو (Bantou) الإفريقية ويسمى نزام (Nzame)، وهو يشبه نظيره أولورون. وتُردّد الزنجيات في الشعيرة الزامية: «لقد ابتعد الإله عنا!» وفي نشيد شعائري لقبائل الفنگ (Fang) في افريقيا الاستوائية نجد ما يشبه القاسم المشترك في مجمل هذه المعتقدات البدائية التي تدور حول عالم السماء وآلهته: «نزام في أعلى، الإنسان في أسفل. الإله هو الإله، الإنسان هو الإنسان. كل في مكانه. كل في بيته»<sup>(27)</sup>.

لذلك لا يتوجه اليه زنونج الفنگ إلا لطلب الشتاء<sup>(28)</sup> وهكذا يظهر لنا بجلاء كيف تحولت هذه الآلهة السماوية القديمة الى صور مجردة وغير مكترثة (Dei Otiosi)، وإلى مبادئ غيبية تفسر الكون كواقع مطلق. وإذا انتقلنا إلى القارة الأسترالية نجد انفسنا امام واقع مماثل، فالقبائل الجنوبية الشرقية (كميلاروا، فيرادجوري، . . .) تعتقد جميعها بوجود إله سماوي يدعى بايام (Baiaime)، مقره في السماء قرب المجرة اللبنيّة، يجلس على عرش الكريستال ويتلقى ارواح الابرياء، وما الشمس والقمر سوى «اولاده» أو «رُسُلُه» إلى الأرض (أو «عيونه» عند قبائل اخرى)،

وله صفات الألوهية مجتمعة، ويمثل الرعد صوته الكوني. كذلك يمثل الإله بوندجيل (Bundzil) الكائن السماوي بالنسبة لقبائل الكولين (Kulin)، وهو يسكن كنيظره بأيام السماء العليا، وقد خلق كل شيء من العدم، وصنع الإنسان من صلصال ونفخ فيه الروح من أنفه وفمه وصرته. لكنه، كنيظره أيضاً، ما لبث أن اختفى من الكون بعد أن منح ابنه بنينال السلطة على الأرض، وابنته كراكروك السلطة على السماء، ولم يبق سوى أثره في الغيوم، في صورة «سيد يُمسك سيفاً كبيراً». وهكذا تسود المعتقدات الطوطمية في الديانات الأسترالية بدلاً من طقوس الآلهة السماوية<sup>(29)</sup>. وخلاصة القول إن الآلهة التي حلت مكان الإله السماوي عند البدائيين كانت ترمي الخصب والغنى والامتلاء الكوني والانساني، مثلها في ذلك كبغل وعشترت عند العبريين، وكانت صفة المعاصرة التي تتميز بها ترجع الى هذه الطاقات والقدرات الحيوية اللامحدودة. رغم ذلك حدثت المفارقة، فكان العبريون والبدائيون يتركونها ليتوسلوا بالكائنات السماوية السامقة في الازمات الكونية والوجودية الحادة، وكان الآلهة الشمسية والزراعية، والاجداد والشرطيين كانت عاجزة عن إنقاذهم ومتخصصة بشكل حصري بالمجالات الحياتية، وفي الأحوال العادية والطبيعية، إنها قداسة الحياة والقوى السحرية - الدينية للخصوصية العالمية التي ازاحت الكائنات السماوية من الطقوس والمعتقدات البدائية!

ولا يزال ابتعاد آلهة السماء يزداد عمقاً ويتأصل في رؤى النفس البشرية وقد رأينا العرب الجاهليين يجعلون بينهم وبين الرب السماوي الواحد (الله) آلهة لا تحصى «تقرّبهم إلى الله زلفى»، ومنها اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها، وكانوا يصنعونها من التمر والطين، بحسب منظورهم المادي في علاقتهم مع المقدسات. «نسوا الله فأنساهم أنفسهم»، و«ظنوا بالله الظنون»، وأوجدوا له اقرباً وابدالاً وازواجاً وذرية، فغيبوا صورته. ولعله لم يعد يمثل بالنسبة إليهم (وبالنسبة للمجتمع الحضاري الحديث بشكل عام) إلا ما كان يمثله بالنسبة للشعوب البدائية، أي رمز الوجود المطلق والديمومة، وسراً كونياً لا بد منه، أو لا بدّ من افتراضه لضبط النفس البشرية وكفالة الشرعية والقانون في المجتمعات. وهكذا استحالت كلمة «سما» إلى مفهوم شعري أو مكاني طبيعي، أو رمزي باطني، وجاءت الرحلات الفضائية لتفقددها الكثير من قدسيتها في نظر الماديين (أو لتعمق هذه القدسية في الفكر الديني)، أو انحدرت بشكل عام إلى ما يُشبه معناها اللغوي الصرف (من سما يسمو، وسما كل شيء: اعلاه؛ ويقال: سما البيت سقفه، وأما السماء الكونية فهي الجهة التي تلو الأرض وتظهر فيها الكواكب والنجوم)، وأصبح الناس عنها سادرون، في جهلهم وعمهون، وقد عادوا في معظم اصقاع الأرض الى ما يُشبه الجاهلية الاولى، واتخذوا آلهة للحب والشهوات والمال والجمال، والازياء والعطور، والتقنية والمدنية،... هياكل واصنام وتمائيل ورموز تحجب عنهم السماء وإلهها السامق (بودا، يهوه، المسيح، الله... .). انطلاقاً من هذه الظاهرة يمكن ان نفهم إلحاح النص القرآني على تقرب إله السماء بأسلوب مباشر حميمي من البشرية، افراداً ومجتمعات: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»، «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب...» (سورة «ق»، الآية 16 - وسورة «البقرة»، الآية 186)، الخ. رغم ذلك تبقى الوهية «الله» القرآني مجردة أو غامضة بالنسبة للفكر الحديث الذي يُفرض في التعلق بالمحسوس، ويبحث عن الدليل المادي والعلمي الصرف والمباشر، ويستمر الانقطاع بين السماء والأرض، وفي ذات الوقت تستمر رمزية السماء وسحرها.

## II— الارض في العقلية البدائية .

### ● الارض الأم، المرأة، والخصوبة

كثيرة هي الاساطير والديانات التي تجعل من الارض الكونية أمّاً للآلهة والبشر والكون والوجود. ويذكر هسيودس مثلاً ان الارض، السابقة الوجود، انجبت السماء مساوية لها لتغطيها بشكل تام، ولتقترن بها. هكذا صور اورانوس، السماء - الأب المزيّنة بالنجوم والكواكب عن غايا (او «جيه»، Gaia, Gê) ليقدّم لها قاعدة ثابتة الى الأبد<sup>(30)</sup>. ويصف هسيودس الإله اورانوس وهو يقترب ويمتدّ في كل اتجاه حاملاً معه الليل، وبه رغبة حبّ جامحة، فيحيط بالارض ويحضنها، ونجد هذه الاسطورة الكونية في كل الميثولوجيات والمعتقدات، في اوقيانيا، وآسيا، وافريقيا الأمريكيتين، وهي تقترب في جوهرها من رواية هسيودس في «أنساب الآلهة». لكنها لا تبدو عالميّة بشكل مطلق، فلا نفع عليها في أستراليا ولا عند الشعوب القطبيّة، او في الصحارى، وعند القبائل الرّحل في آسيا الشماليّة والوسطى... ومعظم هذه الشعوب ترجع حضارتها إلى العصر الحجري القديم الذي ينسب خلق العالم إلى الإله السماوي منفرداً، وكأنه كان «خشوياً»، وكأن المخيلة البدائية لم تستطع تصوّر هذا الزواج الكوني المخصب، كما يرى اصحاب المدرسة الحضارية - التاريخية (ومن ابرز اعلامها ويلهلم شميدت)، إذ كانت الحضارة الإنسانية في طور القطف والصيد والمساواة بين الرجل والمرأة، ومجتمع الزواج من امرأة واحدة، وإلى هذه المجتمعات تنسب القبائل الأستراليّة وقبائل الافزام وغيرها. ثم برزت طقوس الارض - الام وتطوّرت ولعبت دوراً هاماً في التاريخ البشري عقب ظهور مجتمعات «نسبوميّة»؟ (matriarcale). اي ان صفة «الانثوية» لم تكن معروفة كنمط وجودي أوّلي، او ان الاقتران الكوني ليس سوى شكل من اشكال الخلق البدائية التي عقت مرحلة أوّليّة غير واضحة المعالم. وكما يخفي اورانوس بعد القرآن الكوني المؤسس، تختفي غايا ايضاً وتحل مكانها اساطير وطقوس تدور حول آلهة أخرى. وبالكاد يذكرها هوميروس في اولبه الإلهي الغني الزاخر، فهي تنتمي إلى الاصل ما قبل الهليني، ورغم ذلك نراه يهديها احد اجمل اناشيده: «الارض هي التي سوف انشد. الام العالميّة ذات الدعائم القويّة، والجذّة المعززة التي تُغذّي على اديمها كل كائن [...] إليك يعود الفضل في إعطاء الحياة إلى البشر وسلبها منهم [...] طوبى للذي تُشرّفيه بكرمك...»<sup>(31)</sup>. ويُمجدها المأساوي اخيلوس (Eschyles) لإنجابها جميع الكائنات وتغذيتها لها، ولأنها «تلتقي منها من جديد النطفة الخصبّة»<sup>(32)</sup> ولعل الاساطير والشعائر والعادات التي تُظهر تنوّع قدسيّة الأرض وواجه رمزيّتها الكونيّة، تبين لنا في الوقت ذاته ان اول صورة للارض واول حدس لها في العقلية البدائية لا يميّزها بشكل محدّد، بل يعتبرها الكون المحسوس وما يحيط به من موجودات. كما تؤكّد لنا جملة معتقدات حول اصل الاولاد ان البنية الكونية لقدسيّة الارض - الام قد سبقت بُنيّتها الارضيّة المحدّدة العالم والطقوس. كان البشر يعتقدون (قبل معرفتهم بالاسباب العضوية للحمل) ان الامومة تعود إلى إدخال الاطفال مباشرة في بطن المرأة، فهم يأخذون مكانهم في بطن الام في مرحلة ما من نموهم، وذلك بفضل احتكاك او اتصال بين المرأة وبين جسم او حيوان من المجال الكوني المحيط. بذلك يلعب الاب دور المسؤول

القانوني وليس الاحيائي عن اولاده، وتحدد الروابط البشرية وعلاقات القرابة، بحسب النظام الانساني النسبومي (Système matrilineaire) : بالصلة بالأم. وانطلاقاً من هذه الفكرة يرتبط الانسان بقدرسيّة بمحيطه الجغرافي والحيوي، فأصله يرجع إلى الغزاة والضفدعة والتمساح والبجع، وقد تمّ نموه في المغاور والكهوف والآبار والاشجار قبل ان يُقذف في احشاء أمه، مما يفسّر اعتقاد الارمن بأن «الارض هي بطن الام الذي خرج منه البشر» واعتقاد قبائل البيرو بأنها تنحدر من الجبال والحجارة، وذلك الاعتقاد الاوروي الذي لا يزال قائماً في الازمنة الحديثة (بشكل خرافات، وفي قصص الجنّيات) بأن الاطفال يأتون من المستنقعات والينابيع والاشجار والانهار الخ<sup>(33)</sup>. لذلك ايضاً نجد ان كثيراً من الكلمات التي تعرّف الارض في اللغات القديمة تشير الى المكان («مكان»، «واسع»، «مقاطعة»، ...)، او إلى انطباعات بيئية وحسية («صلب»، «اسود»، ...) كل ذلك يعني ان صورة الارض الام الاسطورية (Tellus—Mater) التي تتمتع بقابلية خصب لا متناهية سبقت في العقلية البدائية آلهة الخصب النباتي التي تأكدت في الدور الريفي والزراعي.

وإذا كانت الارض - الام حية وخصيبة، فإن كل ما تنتجه لا بد ان يكون على صورتها عضوياً وحيوياً حتى الأحجار والمعادن التي تُستخرج من جوفها. لذلك نثر على اساطير لا تحصى تحدث عن الاحجار وكأنها عظام الارض، كما في قصة دو كاليون، ابن بروميتيوس، الذي القى بعظام امه (الخصي) من فوق كتفيه ليعيد البشرية الى الوجود بعد الطوفان الذي ارسله عليها زوس لمعاقبتها على تقديم الاضحيات البشرية وتسفيه الآلهة، ولعل العظام كانت تمثل في العهود القديمة المصدر النشوي للانسان والحيوان. ويُشبه كل ما في جوف الارض بالأجنّة، وبالكائنات الحية التي «تنمو» و«تنضج» فيجد الباحث مثلاً في نصرص هندية كثيرة تتعلق باستخراج المعادن كيف يُشبه الزمرد الاحمر في قلبه الصخري بالجنين في الرحم، وأن اسمه يعني في السنسكريتية (لغة البراهمة) «المخلوق من الصخر»، وكيف يُميّز الماس عن الكريستال بأن يوصف الأول «ناضجاً» والثاني «غير ناضج»، او «اخضر» وغير مكتمل النمو، اي بلغة جنينية عضوية. ولعل المناجم ومنايع الانهار كانت تعتبر رحم الارض - الام، فتعني كلمة بابلية واحدة (Pû) «النبع»، و«النهر» و«الرحم»، كما تعين الكلمة المصرية «بي» (bî) «رواق منجم»، و«رحم»، كذلك تُفسّر كلمة «بورو» (buru) السومرية بمعنى «الرحم» و«النهر»! أضف الى ذلك ان بعض الباحثين فسّروا كلمة «آن - كوبو» (An—Kubu) البابلية بأنها تعني «الجنين» او «الطرّح» (Avorton)، علماً بأن الكلمة تستعمل للدلالة على «الركاز» (mineraï) او المعادن الخام المستخرجة من المنجم! وكانت العقلية البدائية تجري مقارنة او معادلة بين العدانة (Métallurgie) وهي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها والقبالة (او فن التوليد، L'Obstétrique)، ففي الافران يستكمل «الركاز» او «الجنين» نموه ونضجه، وفي وقت اقصر بكثير من ذلك الذي يقضيه لو بقي في جوف الارض، وكان الإنسان البدائي يشعر بالزهو والثقة بالنفس اذ يساهم في عمل الطبيعة وفي تسريع عملية النمو التي تحصل في باطن الارض - الام، وكأنه يحلّ في الحيز الزمني او يأخذ مكانه، وفي هذا السياق وعلى صعيد روحي باطني، يمكننا الحديث عن الخيميائي الذي يسعى الى تحقيق ذاته في مخبره السحري. فالذهب عنده هو المعدن النبيل و«الناضج»، وإذا تركت بقية المعادن في حالة «الركاز» تحت الأرض فإنها تستحيل ذهباً في فترة زمنية طويلة جداً، وهل يسعى الخيميائي بطقوسه الباطنية إلا لتحويلها جميعاً الى ذلك المعدن

الاصفر، في عملية تختزل المكان وتبطل الزمان؟

ومن ظواهر خصوبة الارض - الام، تلك الشعائر والعادات التي تُرِنّا كيف تتعامل معها العقلية البدائية - على انها امرأة حيّة، وأما بشرية ينبغي التفرّق بها ومراعاتها وإظهار المودة والعرفان بالجميل لها، وعلى هذا الصعيد تذكر لنا المراجع الاناسيّة حكيماً هندياً اسمه سموهلاً (Smohalla)، من قبيلة «اوماتيلاً» كان يُحرّم على اتباعه ان ينكسوا الأرض بالمُعزقة او المِعول لأنهم بذلك يرتكبون خطيئة لا تُغتفر، «فالمرء يرتكب خطيئة حين يجرّح او يقضم او يمزّق، او يحكّ أمتنا المشتركة الارض بأعمال زراعية»، فهو يتخذ من الارض موقف التقديس والاجلال «أتراني اذهب لأمسك سكيناً واغمسه في صدر أمي؟ أتراني اجرؤ على بتر أليافها للوصول الى عظامها؟ اتطلبون إليّ أن اقطع العشب واجمع العلف وأبيعه وأعتني، كما يفعل البيض؟ ولكن كيف أنجاسر على ان أجترّ شعر أمي!...» ولعل اعتقاد قبيلة البايغا في وسط الهند على تقنيّة الزراعة المتنقّلة، ترجع الى ذات المعتقدات البدائية، إذ تكتفي القبيلة بالقاء البذار في الاماكن المحروقة فقط وفوق الرماد، بعد ان يحدث حريق في مكان ما من الغابات، وما ذلك إلا لرغبتها في عدم الاساءة الى الأرض المقدّسة بتحريم حرثها وفلاحها!<sup>(34)</sup> حتى ان بعض القبائل ترفض الجلوس على الأرض للتخفيف من آلامها، حين تظنّ انها مريضة أو متعبة، كما يذكر ديتريش<sup>(35)</sup>. ويستعرض هذا الأخير في دراسته القيّمة عن الأرض وأساطيرها وطقوسها، ثلاث قضايا تتعلق بخصوبتها كمصدر للحياة في الكون:

(1) وضع الطفل الجديد على الارض؛

(2) دفن الاولاد الذي يتعارض مع حرق جثث البالغين؛

(3) بسط المرضى والذين هم في طور الاحتضار على الارض مباشرة.

(1) يذكر القديس اغستينوس (St. Augustin)، استناداً الى فارون (Varron) آلهة لاتينية ترفع الاولاد فوق الارض<sup>(36)</sup>، ويستشهد ديتريش على ذلك بعادة قبائل الابروز (Abruzzi) الذين يضعون الاولاد في الأرض بعد غسلهم ولقّهم في القماط؛ ولعلنا نجد ذات الشعيرة عند الشعوب السكندنافية والمانية واليابانية وغيرها، حيث يرفع الاب وليده من الارض، وتشير هذه الحركة الى الاعتراف به، او تعني نذر الولد للارض التي هي أمّه الحقيقية، برأي ديتريش، في حين يقرّر غولدمان ان ذلك قد يفيد الرغبة في الاحتكاك بقوة الارض السحرية المقدّسة، وهو معتقد يذكرنا بقصة انتيوس اليوناني (Anteus)، ابن الارض حسب الاسطورة، الذي كان يستمد قوّته الخارقة من احتكاكه بالأرض مما يجعله قادراً على مقاومة هرقل البطل الاسطوري، ولا يتمكن هذا الاخير من التغلب عليه في النهاية إلا برفعه عن الارض، اي بإبعاده عن جذوره العضوية والحيوية. هذا ما يقرّره ايضاً عدد من الباحثين فالشعيرة ترمز الى نفخ الطفل بالروح التي تأتيه من امه الارض<sup>(37)</sup>، لذلك ايضاً كانت الولادة مباشرة على أديم الارض تشكل تقليداً شائعاً عند كثير من الشعوب البدائية، مثل غوريون القوقاز، وفي بعض اقاليم الصين... تستلقي النساء على الأرض عندما تشعرن بآلام الوضع، ليحيط المولود الجديد مباشرة في حضن أمّه الحقيقية، كما يقول سامتر، وفي زيلانده الجديدة تلد نساء قبائل المووري (maori) على ضفاف السواقي وفي

الادغال؛ وتقضي العادة، كما يذكر نيرغ، في قبائل افريقية كثيرة ان تلد النساء وهن جالسات على الارض في الادغال، ويجد الباحث اصداء لذات الشعيرة في تقاليد فولكلورية في اوستراليا وفي شمال الهند، وشمال اميركا، وفي الباراغواي والبرازيل... ويعتقد سامتر (Samter) انها كانت معروفة عند قدماء اليونان واللاتين، وأنها وإن اختفت فقد تركت آثاراً تظهر في تماثيل آلهة الولادة: أيلثيا وداميا وأوكسيا (Eileithya, Auxeia,...) التي تبدو جاثية في وضع المرأة التي تستعد للولادة على الارض مباشرة، ولعل عبارة «جلس ارضاً» كانت تعني في اللغة المصرية القديمة، بحسب تأويل نيرغ (Nyberg) «الوضع» و«الولادة» ومع تطوّر الزمن يتلطف معنى الشعيرة ويكتسي صبغة إنسانية أو حضارية، فتبدو الأرض مثلاً ظهيرة الأطفال، ومصدر القوة والحياة، مما يفسّر بالتالي بعض العادات التي لا تزال حية في كثير من المجتمعات البدائية، كأن يُترك الولد بعض الوقت نائماً في حفرة أرضية ليصبح جسمه صلباً ومنيعاً. إلا أن هذا المهّد المحفور في عمق الارض كان معروفاً في المجتمعات القديمة ايضاً (في اوستراليا، وتركيا...). وفي الحضارات المتقدمة (امبراطورية الإنكا،...) كما يروي نيرغ، كما اننا نجده في المجتمعات الاغريقية حيث كان يُتجنب قتل الاطفال، وكانت العادة تقضي بتركهم في عمق الارض - الام التي تعني بهم، والتي تقرّر إن كانوا يستحقون الحياة ام لا<sup>(38)</sup>. فإن كتبت لهم الحياة فإنهم يصبحون غالباً ابطالاً وملوكاً وقديسين، وتتطابق قصة حياتهم في اغلب الاحيان مع قصة الآلهة المهجورة مباشرة بعد ولادتها (وهكذا كان لزوس، وبوزيدون وديونيسوس وغيرهم مصير مائل لمصير برسيه (Persée) وايون (Ion)، واوديب. ورومولوس، وريموس...). وبشيء من التقصي يستطيع الباحث الميثولوجي ان يجد صدى لهذه الظاهرة في قصة النبي موسى الذي القي في اليم كما القي في المحيط «ماسي» (Massi) بطل قبيلة مووري النيوزيلندية... وغني عن البيان ان هذا الطفل، الذي شاءت الاقدار ان ينمو ويتعرّج في كبد الارض وفي رعايتها، يشكل ظاهرة كونية اصلية، وانه لا يشارك بالتالي عامة البشر في مصائرهم المتبدلة والزائلة. فهو يردد الزمن الكوني، زمن البدايات الكبرى، زمن المطلق، وقد نما وسط العناصر الطبيعية الاولى وليس في بيئة عائلية، بالمعنى الاجتماعي والتاريخي للكلمة..

(2) اما موضوعة دفن جثث الاولاد، فمردها الى ذات الاعتقاد البدائي حول الارض - الأم، وتقضي الشعيرة ان يعود الاولاد إلى صدر امهم الارضية، لعلهم يرجعون ثانية الى الحياة، هذا ما يكشفه لنا شعر جوفيتال اللاتيني<sup>(39)</sup>، وما نشهده عند قبائل الهورون (Hurons) في اميركا الشمالية حيث يُدفن الموتى الصغار تحت قارعة الطرق اذ يسود الاعتقاد بإمكانية انسيابهم في احشاء النساء اللواتي تمرّ فوق هذه الطرق

(3) ولعل الدفن الرمزي، اكان كاملاً ام منقوصاً، له القيمة الدينية - السحرية التي يتمتع بها التعميد عند المسيحيين، لذلك نجد بعض القبائل البدائية تكتفي بوضع مرضاها والمحتضرين على الارض مباشرة، رغبة في جعلهم يلدون من جديد اصحاء معافين<sup>(40)</sup>.

حتى ان بعض الطقوس السكندنافية تُرِنّا كيف يمكن تخليص الساحرة من اللعنة الأبدية إذا ما دُفنت حية، ويُذرت فوقها الحبوب ثم يُجمع الحصاد الناتج عن هذا البذار، كما يشير نيرغ وديترش. وقد ترمز الشعيرة إلى أن الانسان يلد من جديد مع النبات الذي يخرج من جوف الارض مغموساً بمادته التي تذوب في احشائها، لذلك

نجدهم يطبقون على الاطفال المصابين بمرض خطير ذات الشعيرة التي يخضعون لها الساحرة، ولعلنا نجد تطوراً روحانياً وفلسفياً ملموساً لهذه الشعيرة في المعتقدات الهندية حيث تعني إعادة توحيد ملكات الإنسان وأعضائه وحواسه مع الكون الأصلي المجسم (المشبّه بالإنسان، anthropomorphe): «إن نَفْسَك يتجه نحو الهواء، وأذنك، اي سمعك، نحو الجهات الأربع الأساسية، وعظامك تعود إلى الارض، . . . .»<sup>(41)</sup> ويرتبط هذا المعتقد، من جهة اخرى، بتصور بدائي يتعلق بمصير الاموات، ويقضي بأن هؤلاء يسكنون في جوف الارض حتى يحين موعد ظهورهم من جديد إلى النور، هل يصدر الاولاد من مملكة الاموات؟ او هل يعني ذلك ان الارض تبشر بالغيب وتعرف بالمستقبل، كما يرى بعض الإنسانيين؟ لقد أظهرت التنقيبات الاثرية. كما نعلم، ان العرافة في اليونان كانت موجودة قرب الشقوق الارضية، او في المغاور، وقد اثبت بوزانياس في «وصف اليونان» ان كاهنات غايا كانت تجترح معجزة الكشف عن الغيب على ضفاف حفرة.

هكذا تبقى الصفة الاساسية للأرض كونها «حيّة»، لانها خصبة، فكل ما يخرج منها مزود بالحياة، وكل ما يدخل فيها يمتح الحياة من جديد. هذا ما يشير إليه التعبير اللاتيني «Homos humus»، الذي لا يعني فقط عودة الميت الى الأرض بل يُعَيِّن الأرض كمصدر للحياة. وفي هذا الإطار قد يعني الموت الرجوع الى الموطن الاصيل، الأمر الذي يفسر حين الإنسان ورغبته في أن يُدفن في «وطنه الأم»، وأرض اجداده الطيبة<sup>(42)</sup>. وإذا كان القدماء يرفضون دفن الخونة فما ذلك إلا لاعتقادهم بأنهم غير جديرين ان تبارك الارض رمادهم، وهذا ما يذكّرنا بمصير انتيغونا الشهيرة التي ترتكب جريمة لا تُغتفر حين تنثر حنفة من التراب على جثة اخيها ايتوكل (Eteocle) الذي انضم الى اعداء الملك كريون (Créon) للقتال ضد موطنه طيبة (Thèbes). وإذا كانت المياه موجودة في اصل وخاتمة كل شيء وكل حدث كوني، فان الارض تحل في أصل وخاتمة كل حياة، فهي تنتج اشكالاً حيّة ولا تعرف الكلل في عملية الخلق. ونشهد انقطاعاً بين الماء والاشكال التي تصدر عنها، في حين توجد وحدة عضوية وعلاقات تجاذب سحرية بين الارض والاشكال التي تتولد منها، بفعل مبدأ الحياة الموحد. لذلك كان قدماء اليونان يعتقدون ان إراقة الدماء جريمة ذات ابعاد كونية، لأن الدم المراق «يُسَمُّ الارض»، وتنعكس الكارثة على الكون فيعم القحط في الحقول، والعقم في الحيوان والإنسان، هذا ما يُعلنه الكاهن الاغريقي في مدخل مسرحية «اوديب ملكاً»، متشاكياً بسبب المآسي التي أصابت مدينة طيبة: «إن المدينة تموت في بذور الشمار في الارض، في قطعان الشيران التي ترعى، في جبل النساء الذي ينتهي كله دون ولادة»<sup>(43)</sup>. ولعل من واجب الملوك ان يؤمنوا خصب الارض والحيوان والنساء بحكمتهم وحقنهم للدماء، كما يشير هسيودس في «الاعمال والايام»<sup>(44)</sup>.

## ● الارض والزراعة والمرأة في المجتمعات البدائية

ظلت شعوب كثيرة طوال حقبة زمنية كبيرة توحد بين الارض المزروعة ورحم المرأة، بين الإنجاب والعمل الزراعي، وتظهر آثار هذا المعتقد في عادات وطقوس لا تحصى، وفي ثانيا اساليب التعبير اللغوية. يصف المأساوي آخيلوس زنى اوديب بأمة فإذا بهذا الاخير يتجاسر على إلقاء البذار في التلم المقدس الذي تكوّن فيه، وأن «يزرع

فيه جذوة دامية»<sup>(45)</sup>. وتكثر في مسرحيات سوفوكلس الاشارات التي تعين «الاثلام الابوية»، لذلك ايضاً يعتقد ان المرأة هي مكتشفة الزراعة من دون الرجل (الذي كان منهمكاً طول الوقت بالصيد ورعاية الماشية) ولعلها لعبت دوراً رئيساً في هذا المجال في المجتمعات البدائية حيث يخشى من خطورة المرأة العاقر على خصوبة الارض، وحيث يسود الاعتقاد ان كل ما تقوم به المرأة الحامل ينجح، وأن كل ما تبذره يثبت بذات الطريقة التي للجنين في أحشائها. ويلجُ بريفو (R. Briffault) على هذه الظاهرة ويضرب لنا الأمثال الكثيرة مستشهداً بقبائل عديدة في أوغندا حيث يحقُّ للزوج أن يطلب الطلاق من زوجه العاقر، خوفاً على حقله أو حديقة بيته من القحط والجفاف، وقبيلة البهانتو (Bhantu) الهندية، وقبائل أخرى في إيطاليا الجنوبية وفي أصقاع كثيرة من العالم البدائي<sup>(46)</sup>. ويمكن القول إن هذا التطابق بين المرأة والثلم الخصب استمر حتى بعد أن أصبحت الزراعة تقنية الذكور، وأخذ المحراث مكان المعول البدائي. فالنساء «يحملن حقلهن في جسدهن» كما يقول مثل فنلندي، وينحصر دور الرجل في إعطاء البذار. كذلك تُوحَّد القبائل الهندية بين الاثلام والفرج (Valve)، وبين الحبوب والسائل المنوي، ونقرأ في الاتارفا - فيدا: «إن المرأة تأتي كأرض حية: ألقوا فيها، أيها الرجال، البذار». وتقارن نصوص أخرى المرأة التي لم تُنجب بالأرض البور. وفي قصص الجنيات تُعبر الملكة العاقر عن حسرتها مشبهة نفسها «بالحقل الذي لا يثبت فيه شيء». وفي صورة أكثر تفصيلاً، في رمزيتها، تُجسّد العذراء في أحد أناشيد القرن الثاني عشر الميلادي بأنها «أرض غير محروثة قد أعطت ثماراً» (Terra non arabilis quae fructum parturit).

وجدير بالذكر ان هذه المعادلة الرمزية كانت شائعة عند جميع الشعوب السامية، كما يقرّر سميث<sup>(48)</sup>. وينقل إلينا نصّ اشوري صلاة موجهة الى الإله «الذي أخصب الارض بمحراثه»، إذ كان الإله «يعمل» يُطلق على نفسه لقب «زوج الحقول». وترد لفظة «الحرث» مجازاً لتعيين الزوج في النص القراني، فهي مكان غرس الابناء، اي موضع الانتاج. كما ان الحرث هو وسيلة الاستنبات: «نساءكم حُرث لكم فأتوا حُرثكم أنى شئتم» (البقرة، 223). والزروع في الاصل مصدر، ثم عبّر به عن المزروع، ونبأ كل شيء يُحرث. بذلك يُشير القرآن الكريم الى قدسية عملية الاخصاب: «أأنتم تزرعون أم نحن الزارعون؟» فكما يثبت الله الزرع بإذنه، كذلك هو «يصور ما في الارحام» «هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء». (الواقعة/84، آل عمران/6).

وثمة ظاهرة لعلها تشكّل نوعاً من الانحدار بالرمزية الاسطورية إلى حالة طفيلية تطيرية، وتقضي باستعمال التعاويذ السحرية التي تمثل الاعضاء المخصبة (التناسلية) كما يشير ديتريش، ويصف فريزر كيف ترقص بعض القبائل الاسترالية حول حفرة تُشبه في رسمها عضو التناسل الانثوي، وقد تسلّحت بأسهم تحملها وكأنها اعضاء تذكيرية. ثم تغرسها كالأوتاد في الأرض املاً بإخصابها في نهاية الشعيرة. كذلك كانت التقاليد تقضي في بعض المجتمعات القديمة ان تشق الصبايا العاريات الاثلام الاولى بواسطة المحراث، رغبة في احداث خصوبة اوفر قدراً في الارض<sup>(49)</sup>. ولعل هذه الطقوس تعيد الى اذهاننا صورة الإلهة ديمتر (Demeter) وهي تقترن بجاسون (Jason) في بداية الربيع، ومباشرة فوق ثلم ألقى فيه البذار حديثاً، لتعجيل خصوبته وتعميقها، كما ورد في «اوذيسة» هوميروس<sup>(50)</sup>.



وُلِّفَتْ انتباهنا بشكل خاص اهتمام الدراسات السلالية بشعائر وعادات زراعية عنيفة ودموية، عينا بذلك عادات الاضحية البشرية في المواسم الحقلية والاعياد النباتية، والتي عُرفت بشكل خاص عند قبائل الاستيك المكسيكية وقبائل الخوند البنغالية. ويعتقد مؤرخو الديانات القديمة ان هذه الطقوس قد انتقلت من مراكز انتشار أولية (مصر، سوريا، بلاد ما بين النهرين...) ثم تبعثرت عناصرها عند شعوب اخرى كثيرة<sup>(51)</sup>. وقد ترك لنا الرحالة سهغون (Sahagun) وصفاً دقيقاً لشعائر تقديس الذرة عند الاستيك المكسيكيين<sup>(52)</sup>. ما أن يظهر رُشيم القمح في الحقول حتى تذهب القبيلة الى الحقل لتُحضر إله القمح، وهو عبارة عن نبتة صغيرة يؤق بها إلى البيت وتقدّم لها الهبات الغذائية. وفي المساء تؤخذ النبتة إلى معبد آلهة الاغذية حيث تتجمع فتيات تحمل كل منهن سبع سنابل من الحصاد السابق، وتُختار الصبايا من ثلاثة اعمار مختلفة توازي مراحل نمو الذرة، وتكون ساقا الفتاة مغطاة بالريش الاحمر، وهو لون آلهة الذرة الرمزي. وبعد ثلاثة اشهر، اي حين تنضج الذرة، يُقطع رأس صبيّة ترمز إلى آلهة الذرة الجديدة، الامر الذي يجعل أكل هذه الأخيرة مشروعاً. وفي نهاية الحصاد، بعد شهرين من ذاك التاريخ، يُضحي الاستيك بامرأة تمثل الآلهة توسي (Toci) (وهي «آلهة الذرة المحصورة») ويُسلخ جلدّها في الحال، فيغطي به احد الكهنة جسده. وتُحمل قطعة من ساق الاضحية الى المذبح حيث يقف كاهن آخر يلبس قناعاً ويلقب «بالنساء» (L'accouchée)، ويمكن تأويل ذلك بالقول ان توسي وبعد ان يُضحي بها تولد ثانية من الذرة الجافة التي سوف تستخدم حبسها للغذاء طوال الشتاء المقبل. ويتبع ذلك سلسلة من الاحتفالات القبليّة يذر خلالها الملك كل ما يقع في متناول يده فوق رأس توسي - الرمز، ويختفي بعدها في الحال. ثم يتقدم الموكب الاحتفالي حتى حدود القبيلة الجغرافية حيث يصلب الكاهن جلد الاضحية على جدار صرح أقيم لهذا الغرض، ويعود الجميع في النهاية وكأنهم تخلّصوا من خطيئتهم وافرغوا عنفهم على «كبش محرقة»<sup>(52)</sup>. ونشهد تغييراً طفيفاً في الشعيرة عند قبائل اميركية اخرى، حيث يُقطع جسد الاضحية ويسوى الثرى في عدة امكنة من الحقول بغية الحصول على الإخصاب. وتكرر ذات الشعيرة عند بعض القبائل الإفريقية<sup>(53)</sup>.

## نماذج من سفر التكوين البدائي

### - الاسطورة البولينية و«البیضة الكونية».

تشكّل الأسطورة النمط أو النموذج الأصلي والرميز الأولي الذي ينبغي تقليده في شتى مظاهر الحياة اليومية، إحيائية كانت أو نفسانية أو روحية، وهي في أصل كل الأعياد والطقوس والنشاطات البشرية من إبحار وصيد وزراعة وبناء... وليست هذه الموضوعات منوطة بظاهرة بدائية مندثرة، بل يقع عليها الباحث في شتى الحضارات الانسانية، ومهما تباينت درجة الحضارة فيها. هكذا نقرأ في نصّ روحي هندي وصفاً غريباً لعملية إخصاب تقلّد غمطاً كونياً من أنماط

تزاوج الآلهة. فالزوجان البشريان يتحدان مع الزوجين الإلهيين أثناء الشعيرة: «أنا السماء»، يردد الزوج، و«أنت الأرض» ويتابع مواكبة عملية الاقتران مستعيناً بالآلهة التي أعطت النموذج الأصلي للبشر: «ليُحضَر فيُسْنو الرَّحْم». ليضع تفاشتار الأشكال، ليَقْذِف تراجاباتي؛ ليضع داهتار في داخلك النُطفة<sup>(54)</sup>. وتستعمل عبارات مماثلة في شعيرة إخصاب رحم عاقر وفي مناسبات وظروف أخرى كثيرة. ولعل هذه النزعة الانتروبومورفية (التشبه بالآلهة) تبدو بشكل أكثر تعقيداً في الرمزية الخيمائية المتعلقة باقتران الشمس والقمر، ذلك أن رمزية الاسطورة النشوئية (المتعلقة بنشأة الكون وولادة العالم) تستمر وتتفاعل وإن اندثرت الاسطورة الأولية المؤسّسة. ونضرب مثلاً على ذلك اسطورة بولينيزية تُظهر سلف الآلهة كلها وخالق الكون مستقراً في قوقعة (قشرة بيض) وسط الظلمات ومنذ الأزل، وتشبه القوقعة بيضة تدور في الفضاء اللامحدود. بعد ذلك يخرج الإله إيو (IO) عن صمته ويخلق النور والساء والأرض وسائر الكون، وتدخل موضوعة البيضة الكونية البولينية في ميولوجيات عالمية مختلفة، إيرانية وفنلندية، وفينيقية وإفريقية، ونجدها في اميركا الوسطى والشاطيء الغربي من اميركا الشمالية. . . كذلك في اوقيانيا حيث يسود اعتقاد قبي أن الانسان خلق من بيضة، وفيه دليل على أن خلق البشرية يُقلد ويكرر اسطورة الخلق النشوئية<sup>(55)</sup>. ولعل هذه الموضوعية وما تنطوي عليه من رموز تغذي تقاليد وشعائر فولكلورية بالغة الاهمية في مجتمعات مختلفة جداً، وحيث تضاف غالباً الى رموز أخرى تتعلق بتجدد الطبيعة والنبات. وهكذا تُزَيّن اشجار عيد رأس السنة، واعياد ايار، وشجرة الشعينة. . . بالبيض او قواقع البيض، ويعتبر البيض الملون هدية عيد رأس السنة (عيد البيض الاحمر) في بلاد فارس ومناطق شرقية أخرى، وفي بلاد البلقان، ونجده في عيد الاموات (عيدالنبات) في الهند، هولي (Holi)، حيث تُضرم النار ويلقى فيها بصورتين بشريتين، احدهما مذكرة والاخرى مؤنثة، وتمثلان «كامديقا» و«راقي». ويقذف المحتفلون في النار المتأججة بيضة ودجاجة حية مع الصورة الاولى<sup>(56)</sup>. ويرمز العيد الى موت كامديقا وراقي وعودتهما الى الحياة، أي أن البيضة تشير هنا الى البعث، وهو ليس ولادة، بل عودة وتكرار. كما تؤكد هذه الرمزية العالمية حفريات اجريت في مجتمعات شديدة الاختلاف كالروسية والسويدية إذ وجد المنقبون بيضاً من جنس في المقابر القديمة، اعتبرها العالم الاناسي آرّن رمزاً للخلود<sup>(57)</sup>. وكشف روهّد النقاب عن أن تمائيل ديونيسوس التي عُثِر عليها في المقابر البيوتية (Béotiens) تحمل جميعها بيضاً في يدها. ويستمر الرمز ويتفاعل حتى يومنا هذا في طقوس كثيرة، فنرى الفلاح الفنلندي يحتفظ بيضة في جيبه طوال مدة زرع البذار، ويضيف الالمان بيضة الى بذر الكتان، او يضعون البيضة في الحقل، او يستهلكون بيضاً أثناء البذار. وغني عن البيان ان البيضة تعتبر في هذه الشعائر والعادات الفولكلورية بشيراً بإعطاء الحياة الى النبات، كما أعطت اشكال الحياة في الازمنة الأولية. وفي هذه المقولة ما يناقض تعريف هوميروس للأسطورة بأنها مقال او «حديث» من غمط خاص. فهي «حدث اولي» و«عمل مقدس». وقد تبين لنا بوضوح ان الباحث يرتكب خطأ فادحاً حين يُجمل جميع الاساطير الى غمط واحد، كأن يجعلها مثلاً ظواهر مقدسة شمسية او قمرية، إذ يجب قبل كل شيء البحث عن بنيتها ووظيفتها في التجربة الروحية والفكرية او الوجدانية عند الشعوب.

## - الاسطورة النشئية الاميركية -

ولا بد لنا في نهاية المطاف من تحليل نماذج كاملة من الاسطورة النشئية، التي لا تخلو منها ميثولوجيا عالمية، الامر الذي يضعنا امام صعوبة الاختيار، وقد نخصص لها مقالاً آخر لاتساع انتشارها وشدة غناها، ولأهميتها البالغة في فهم سائر الاساطير والشعائر، وسوف نكتفي بالإشارة الموجزة الى بعض الاساطير الاميركية والاسترالية واليابانية في هذا البحث.

تشارك الاساطير الاميركية بعدة عناصر اهمها ان البشر الاوائل قد عاشوا فترة في احشاء امهم الارض حياة نصف بشرية، إذ كانوا أجنّة غير مكتملة النمو، لذلك قرّر خالق الكون الأول ان يُبقيهم بعض الوقت في بطن الارض لينضجوا، وربما يحضّر لهم اسباب الحياة على وجه الارض. ونجد في بعض هذه الاساطير أن البشر كانوا يعيشون في جوف الارض بصورة بشرية، أو أنهم كانوا في هيئة حيوانية<sup>(58)</sup>. كما تروي اساطير قبائل الإيروكوا (Iroquois) ان اسلافنا الاوائل كانوا يهيمون في ظلمة لحدية تحت الارض. الى ان وجد أحدهم منفذاً خرج منه إلى النور، وعثر بالصدفة على ظبية فقتلها وعاد بها الى مقرّه في باطن الارض - الأم. وحين أُطْلِع الآخرين على كل ما رأى، وذاقوا معه لحم صيده الثمين، قرّروا بالإجماع الصعود الى السطح. اما قبائل النفاهو (Navaho)، في اميركا الجنوبية فهي تطلق على الارض تسمية «المرأة الممددة، وتجعل لها اربع طبقات تدعى «الارحام الاربعة»، كما تصف صعود الانسان الاول إلى وجه الارض من عمق الرحم الرابع عن طريق بحيرة او نبع، او متسلقاً كرمه او قصبة (حسب القبائل).

ويمكننا سرد الاسطورة الاميركية زوني (Zuni) بكاملها كنموذج للأسطورة النشئية في هذه القارة. تروي الاسطورة ان «الإله المبدع» «صانع وحاي كل شيء»، كان وحده موجوداً في البداية، وكان الكون كله من حوله خاوياً. ثم ما لبث الإله الأول ان تحوّل الى شمس، ومن مادة الشمس خلق نُطفَتين وقذف بهما في المياه الكبرى التي اصبحت خضراء بفعل حرارة الشمس ونورها الساطع ثم ظهر على وجه الماء زبد اخذ يكبر تدريجياً حتى اتخذ شكل الارض - الأم والسماء الأب، ومن اتحادهما تولدت اعداد هائلة من الكائنات الحية. لكن الارض - الأم تحتفظ بهذه المخلوقات في جوفها المكوّن من «اربعة ارحام» وتتطوّر هذه الاشكال الحية في العالم الدينامي الى ان تخرج كما يخرج الطير من البيض. لكنها تبقى غير مكتملة النضج، وتزحف نحو بعضها البعض وتتبادل الشئمة في الظلمات الجوفية. وتجري محاولات عديدة للخروج الى النور، الامر الذي يشير إلى غو النزعة الانسانية والحكمة عند هذه الكائنات. ويتميّز بينها بوشيانكيا (Po'chaiyank'ya) بذكائه وبنفحة من الطينة الإلهية، وتفسّر الاسطورة هذا الامر بجعله ينشأ تحت المياه الاصلية بذات الطريقة التي ظهرت بها الشمس فوق هذه المياه، ويحاول بوشيانكيا، فينجح حيث اخفق قومه. وبعد ان يجتاز «الارحام الاربعة» (وتبدو بشكل مغاور جوفية) يصل الى سطح الأرض، وكانت آنذاك جزيرة رطبة ومتحرّكة. ويتوجّه نحو أبيه الشمس بالرجاء كي يُخلّص البشرية المحتجزة في جوف الارض. حينئذٍ تتوهّج الشمس من جديد، وتنفذ اشعتها في زبد الأرض - الأم لتُخرج منها توأمان تباركهما الشمس وتزودهما بكل القوى الخارقة جاعلة منهما اصل البشرية. ويعمد التوأمين الى رفع السماء،

ثم إلى شق الجبال بمدة كأنها «حجر زوبعة» ليفسحاً بينها مجالاً ينفذان منه إلى الاصقاع الديماسية. ثم يحولان بعض النباتات إلى مرقاة سحرية يصعد بنو جنسها بواسطتها حتى الرحم الثاني. ويتحول الذين لا يقلحون في هذا الصعود الأول إلى وحوش متمرده وهي حسب الاسطورة مسؤولة عن الكوارث والزلازل الكونية، ويدعى الرحم الثاني، وهو أكثر رحابة ونوراً لقربه من خاصرة الأرض - الأم، «الرحم الوريدي» أو «مكان المخاض»، ومن جديد يصعد اسلاف البشر إلى الرحم الثالث، وهو «الرحم المهلي»، أو «مكان التناسل والتكوين»، ولعله أكثر اتساعاً ونوراً من سابقه. وأخيراً تصعد المخلوقات الضبابية الأولى إلى الرحم الرابع، أو «رحم المخاض». حيث تنعم بالنور وبرؤية العالم، وتتطور عقلياً، كل حسب طبيعتها الخاصة. وفي هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة ينكب عليهم التوأمين كالأهل على صغارهم، ويعلمونهم كيف يبحثون عن الشمس - الأب التي تكشف لهم اسرار الحكمة، كي يتمكنوا في خاتمة حياتهم من الصعود إلى «عالم النور» أو «عالم المعرفة». وتستفيض الاسطورة في إعطاء تفاصيل تتعلق بالأشكال البدائية لاسلافنا، وبطرق معيشتهم. فهم كائنات غريبة سوداء نصفها بشري، والنصف الآخر حيواني، لهم أذان غشائية كأذني الخفاش، واصابع أرجلهم متصلة كما في أطراف كفيات القدم (Palmipèdes) وكانت لهم أذنان، ولم يكن باستطاعتهم بعد المشي بشكل عمودي، فكانوا يقفزون كالضفادع ويزحفون كالعظاية (فصيلة السقايات)، وهم شعب بخاري وغير مستقر لا يتناول الطعام الصلب بل يتغذى فقط ببخار الاطعمة وروائحها. ويفسر لنا هذا غط تغذية الطفل الرضيع، فهو يتغذى من «الهواء» إلى ان ينقطع «الحبل السري»، فيبدأ بامتصاص السوائل.

وتشير الاسطورة بوضوح إلى انه بفضل الشمس - الفكر التي أرشدت البشرية الأولى وساعدتها على الصعود إلى سطح الأرض، استطاعت البشرية تخطي المرحلة الجنينية والتدرج، بمساعدة التوأمين، في الارتقاء حتى عتبة الوعي الوجودي. أي أنه كان لا بد من وسيط إلهي ليقود البشر نحو الوجود الواعي ويقلطه الفكر التي يرمز إليها، كما اسلفنا الصعود التدريجي من الظلمات التلورية (الجوفية) إلى رحاب النور. ويلاحظ الباحث كيف تربط الاسطورة بين المسألة الإحيائية أو النسالة (ontogénèse، مبحث تكوّن الأنسال وتطورها) وموضوعة تطوّر الفرد (Phylogenèse) بإشارات واضحة إلى الارحام وإلى الأشكال الجنينية (يرقات، اطياف... ) أو الأشكال البشرية البدائية والمنتشرة. وتتضمن الاسطورة اغط السلوك الانساني المثالية والابدية، فنجد قبائل النفاهو ترددها بكامل حلقاتها واحداثها، بمناسبة طقوس احتفالية تجرى مثلاً لطلب شفاء مريض، أو لتكريس طبيب عراف<sup>(59)</sup>.

## - اسطورة قبائل الكرادجيري الاوسترالية

وتتصل الاحتفالات المسارية بأساطير نشوية أيضاً عند قبائل الكرادجيري الاوسترالية. وتروي هذه الاساطير ان الاخوين بغاو جبوي خرجا من تحت الأرض، وكانا في صورة كليين اوستراليين متوحشين (دينغو، Dingos) ثم تحولا إلى هيئة عملاقين بشريين يطال رأسهما قبة السماء، ولم يكن في الوجود آنذاك اثرأ لحيوان أو نبات. وعندما رأى العملاقان نباتاً وحيوانات اعطاها اساءة محددة جعلتها تظهر إلى الوجود الحقيقي، بعد أن كانت اطيافاً مبهمه.

وتوقّف أحدهما ليبول. فقلّده أخوه، ويقلّدهما في ذلك جميع أفراد القبيلة، على مر العصور. ثم توجّها نحو الشمال فشاهدا منجماً وعمراً وسميائهما كذلك. واثناء تجوالهما في العالم التقيا برهط من الرجال والنساء فاعطياهم تنظيماً قُبلياً محكماً، لا يزال سارياً حتى الآن. ولم يكن للبشر آنذاك اعضاء تناسلية، فتناول الاخوان نوعين من الفطر ومنحاهم الاعضاء التي لا تزال عندهم حتى يومنا هذا. . . وتتوالى الاحداث لتصف مجمل العادات والتقاليد والشعائر وانماط السلوك التي اسّسها الاخوان خلال حياتهما المثالية والتي تشكل النماذج الاولى لكل عمل وكل سلوك وكل شيء في الكون. ثم تروي الاسطورة ان رجلاً أقدم على قتلها برمح. لكن الأم دِلْغا (Dilga)، ونستغرب وجودها المفاجيء، لأن نشأة الاخوين لم تكن عضوية او بشرية! اشتمت في اهواء رائحة جثة فسال حليب صَدْرُها على الارض، وتحرك منها كالسيل المتدفق باتجاه مكان الجريمة، فأحيا الاخوين وأغرق القاتل، وفي النهاية يطير الاخوان الى السماء ليرسا في كبدها ما يسميه الاوروبيون «غيوم مجلّان»! ولعل هذه الاسطورة تبدو لنا هزيلة بالقياس الى سابقتها الاميركية، فهي لا تعطينا اي تفصيل عن تكوين البشر او عن طبيعة علاقتهم بالارض - الام او بالسماء - الاب والفكر، واهم ما فيها سرد مواقف وجودية معيشية حصلت للبشر الاوائل في إطار المثالية المطلقة واليوطوبيا.

### - الاسطورة النشوئية اليابانية، وخرافة التوالد الارضي العُذري.

ومن هذه النماذج الاسطورية البدائية ما يشير الى صدور كل شيء ليس فقط عن الاقتران الكوني، بل عن الارض مستقلة وبشكل حصري، إذا صح التعبير، كما هو الحال في الاسطورة النشوئية اليابانية. وتروي الاسطورة انه في البدء كانت السماء والارض؛ ايزاناجي وايزانامي، وكانتا متصلتان ولهما شكل بيضة كونية في وسطها نقطة، اي أنهما تشكلان كائناً خثوياً مطلقاً، وفي المرحلة التكوينية الاولى تنتقل بنا الاسطورة الى جزيرة صغيرة غير ثابتة او واضحة المعالم، توجد في وسطها قصبة تصدر عنها الآلهة التي تمثل ولادتها المراحل المختلفة لتنظيم العالم، وما هذه القصبة سوى النقطة التي تحدّثنا عنها، ولعلّها الشكل الاول للارض - الأم. ثم تنفصل الارض عن السماء فتبدو الاولى في شكل انثى والثانية في شكل ذكر بشريين. وتفاجئنا النصوص اليابانية بوجود آلهة سماوية ثلاثية، تطلب الى الارض والسماء ان تُهيا الخلق، اي ان تخلقا اليابان (نصوص نيهونجي وكوجيكي، Kojiki Nihongi). الا ان آلهة السماء لا تلبث ان تبعد عن الارض والبشر وتفقد بذلك معاصرتها الدينية، وتصبح آلهة غير مكرّثة (Dei otiosi). وتذكر الاسطورة ان هذه الآلهة تتدخل لإبطال القران بين الارض والسماء حين تسبق الارض السماء بالتلفظ بشعيرة الزواج، وكأن في ذلك صراع بين الحضارتين التقليديتين: النسبوية والنسبوية، ينتهي بانتصار هذه الاخيرة، وهكذا يتخلّى عن الطفل الاول، ثمرة الزواج النسبوي، ويدعي هيروكو (Hiruko) اي «العلة» بسبب ضعفه الشديد. ثم يتم الزواج الكوني النسبوي، ومنه تنشأ جزر اليابان وسائر الآلهة، وآخرها إله النار. إلّا ان هذه الولادة المشؤومة تقضي على ايزانامي التي «يحترق رحمها»! وفي هذه المرحلة المصيرية من الاسطورة، نجد ان ايزانامي لا تفقد خصوصيتها بل تهب الحياة اثناء موتها، ومن تلقاء ذاتها (من جسدها) إلى آلهة اخرى هي بوجه خاص مائية وزراعية، ثم تهبط ايزانامي الى جوف الارض، ويشرع ايزاناجي بالبحث عنها، كما يفعل اورفيوس في الميثولوجيا الاغريقية، ويقوده الشوق الى مقامها، فيعرض عليها الصعود معه الى أعلى، فتطلب إليه الانتظار وعدم

إنارة العتمة الديماسية القائمة، لكنه يفقد صبره فيشعل سناً من مشطه ليدخل إلى «القصر اللّحدي». وبهذا التصرف الفضولي يُفسد ايزاناجي رحلته إذ يبصر ايزانامي جيفة تتحلّل وتفسد فيروعه ما رأى ويهرب إلى أعلى، وتلحق به زوجته، لكنه يخرج من الثقب الذي هبط منه ويسدّه بصخرة ضخمة. ويتبادل الزوجان الكويّان مرة أخيرة الكلام من وراء هذا الحجاب الشخين. وينتهي الحوار بأن يلفظ ايزاناجي عبارة الانفصال الطقوسية ويصعد إلى السماء، في حين تعود زوجته إلى أعماق الأرض لتبقى فيها إلى الأبد، ولتصبح إلهة الموت. ولعل كل الآلهات الأرضية والزراعية التي هي في ذات الوقت آلهة الموت والخصب والولادة والعودة إلى بطن الأم، تنتهي إلى ذات المصير المحتوم.

يَمُنّا من سرد هذه الأسطورة ما ورد فيها من توالد عُذري، عندما خلقت الأرض من غير إلحاح أو إخصاب النباتات الغذائية والمائية، وإله النار وآلهة أخرى، وإن ثمن ذلك كان التضحية بها كأم كونية، لعل ذلك يفسّر لنا لماذا تلجأ شعوب بدائية كثيرة إلى الاضحيات البشرية خلال شعائر تقيمها للاحتفال بولادة النباتات الغذائية، ففي إندونيسيا تُضحي أم، أو فتاة شابة، بنفسها لتنتج من جسدها حباً ونباتاً مختلفاً، في حين تقع التضحية بشكل عام على كائن مذكّر في غينيا الجديدة وماليزيا وبولينيزيا، ...

ولا تنفرد الأسطورة اليابانية بهذا التوالد العذري الأرضي (Parthénogenèse) الذي تكرر اصدهاء ميشولوجيات كلاسيكية متطورة كالميثولوجيا الإغريقية حيث تلد «هيرا» (Héra) من غير إخصاب تيفاوون وهلفيستوس وأريس، وكأما أرادت بذلك أن تتساوى مع الإلهة زوس الذي تخرج الإلهة اثينا من رأسه مدججة بالسلاح!

أما بالنسبة للاضحيات البشرية وطقوس التهلكة والعريضة التي تصحبها بمناسبة المواسم الزراعية، فإنها لا تدل على رعاية الأرض - الأم لتقاليد المجون واللااخلاقية بالمعنى الشائع للكلمة بل على العكس من ذلك، تُمثّل إلهة الأرض والخصب في سائر المناسبات راعية القوانين والأخلاق، كما في السودان الفرنسي عند قبائل الياهنغو (Yahengo) حيث تعتبر بطلّة الفضيلة والعدالة، أو في شاطئ العاج عند قبائل كولانغو (Kulango)، حيث تُمثّل الإلهة المناوءة للمجرمين والسحرة وغيرهم، وهي في إفريقيا بشكل عام تُعارض الخطايا والزنى وارتكاب المحرم وكل أنواع الانحراف الجنسي. وقد ذكرنا كيف يجعل الزنى والدم المراق الأرض عقياً في خرافة أوديب اليونانية.

### الأسطورة البدائية والحقيقة الإلهية

وخلاصة القول إن هذه الأساطير الكونية تشكّل البنى الأساسية للأرض في المخيّلة البدائية، وهي ليست إطلاقاً مجرد هلوسات طفيلية أو هذيان لا واعي وغير منطقي لا يمت بأية صلة إلى العقلية «العلمية» أو الفكر الحديث بصورة عامة، وقد رأينا بجلاء كيف تستمر وتتفاعل رمزية الأسطورة في الطقوس والشعائر والعادات، وفي أنماط التفكير والممارسات عند شعوب العالم التي تتفاوت في البداوة وفي درجات الحضارة والرقى، ذلك أن «الخلق كله من عيال الله»، وأنهم من أصل واحد، وأن هذا التوحد في الأصل لا بد أن ينعكس في شتى مظاهر الحياة، وعلى مختلف الأصعدة. ولعل الكتب السهاوية تكرر هذه الحقيقة إذ تصادق على بعض ملامح الأسطورة النشوية

البداية، ودون ان تكون اسطورية بمحض ذاتها، بمعنى الخيال الوثني او التصوير الفني والادبي للواقع، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر ان القرآن الكريم يُلحُّ على وظيفة الارض كوعاء للحياة، ومكان للإخصاب العالمي الذي يحصل بفضل الماء التي يُرسلها الله عليها، ويُصور مجازاً كيف انبت الله كل شيء من الارض، بما في ذلك الإنسان والحيوان («وما أنزل الله من ماء من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها» - البقرة/64)، («إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب» - الحج/5)، فالماء هو عنصر الحياة في بداية الخلق ويوم البعث: «فأحيينا به بلدة ميتاً، وكذلك النُشور» - فاطر/9). («والله، يتكلم من الأرض نباتاً» - نوح/17)، («هو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء» - الانعام/99). . . . وقد وردت لفظة «الارض» في القرآن الكريم بمعنى الكوكب الذي يعيش عليه الانسان (وفي مقابل «السماء») اربعمئة وخمسين مرة («الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء» - البقرة/22)، او بمعنى جزء من هذا الكوكب (كما في سورة يوسف مثلاً: «قال اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم، الآية 55). كذلك اطلقت على «ارض الجنة» (كما في سورة الزمر/74 «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نبيواً من الجنة حيث نشاء») ويصف القرآن الارض على انها «دار» الحياة الفانية، والمخلوقة فيها لاجل مُسمى، وأنها متحف اسرار القدسية الإلهية بما تكشفه لنا من بدائع الخلق وعجائب التكوين: «فليظر الانسان الى طعامه، إنا صببنا الماء صباً. ثم شققنا الارض شقاً. فأنبثنا فيها حباً وعبأ وقضباً، وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم.» سورة عبس/24-32. «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه، ثم يبيح فتراه مصفراً، ثم يجعله حطاماً، إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب» - الزمر/21.

## ● الارض والخيال الاسطوري في «الفتوحات المكية» لابن عربي

يمكن القول ان العقلية العربية الجاهلية جعلت من باطن الارض جحياً وثنيّاً، ومستقراً للجِنّ، ومستودعاً للارواح البرية، كما في عادة الواد المُشينة، رغم ان الأعراب كانوا يعتقدون بأمومة الارض التي منها نشأ الانسان وإليها بصير. ولعل البيئة الصحراوية المحيطة، برتابتها وقسوتها قد حجبت عنهم خيال الارض في تنوعه وغناه الميثولوجي. لكن الإسلام استطاع بنزعه المادية التصويرية ان يطلق مخيِّله العربي الحادة في كل اتجاه، وان ينزع عنها القيود ويكسبها عمقاً ونفاذاً لم تكن ممكنة قبل ذلك. ولقد حتّ القرآن الكريم الانسان على التبصّر في كل ظاهرة، والملاحظة الدقيقة في كل شأن يعرض له لينفذ الى رحم الاشياء ويتعرّف على بارئها. وفي رحلة الايمان الطويلة كانت الصوفية محطة خاصة مذهلة، فهي تعيّن مدارج الاولياء والعارفين واصحاب الكشوفات الربانية والذين يعيشون تجاربهم الروحية في عالم الوجد والانخراط والتجلي، حيث يشهد المريد «ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وتسترعي انتباهنا هذه الطوبائية الصوفية المؤمنة بتصوّرها الرمزي والمجازي للارض وكنوزها واسرارها، والذي لا يقف عند المعطيات القرآنية والتراثية بل يتخطاها إلى عوالم الخيال الباطني السريالية، التي تتوافق فيها الاضداد، ويتحقّق فيها اللامعقول، ويختلط فيها الوعي باللاوعي حتى يصعب فك رموزها على غير العارفين.

فالارض عند ابن عربي مثلاً هي «صفات الخلق في مقابل صفات الحق». وعالم الفساد في مقابل عالم الاصلاح، والارض الإلهية الواسعة التي يتحدث عنها القرآن الكريم («يا عبادي إن ارضي واسعة فيباي فاعبدون») هي في نظر الشيخ الاكبر «ارض معقولة» غير محسوسة ولا محدودة، تتجلى فيها الالهية. وهي إن ظهرت في الحس فمظهر تجلي الحق في الصور، وتجلي المعاني في المحسوسات<sup>(60)</sup>. وهي مع ذلك ارض بدن العبد المحددة الأبعاد ظاهراً، لأن الارض المقصودة في الآية الكريمة هي «ارض العبادة»، ولأن التكليف يسقط اذا فارقت الروح البدن! وهي «واسعة» بالإشارة الى ما وسعته من المعاني والقوى التي لا توجد إلا في هذه الارض البدنية الإنسانية<sup>(61)</sup>. ولعل اهم هذه الارضين جميعها هي «ارض الحقيقة» في المفهوم الصوفي، فهي ارض العارفين المخلوقة من «فضلة من خيرة طينة آدم». بحجم السمسم: «لها قدر السمسم»، وجعل الله منها ارضاً واسعة الفضاء، إذ جعل العرش وما حواه، والكرسي والسموات والارضون وما تحت الثرى، والجنات كلها والنار في هذه الارض (...). وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره (...). وإذا دخلها العارفون فإنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم، فيتركون هياكلهم في هذه الحياة الدنيا ويتجردون (...). ثم يروي لنا الشيخ الاكبر تجربته الذاتية الفذة الزاخرة بالرموز الكونية، والمثقلة بجنى الفكر الاسطوري العالمي، والتي تعطينا ملامح رائعة من التصورية الخيالية للفردوس في القرآن، وتبدع عيّنات رائعة تدل على عبقرية التصوف الاسلامي: «ودخلت في هذه الارض: ارضاً من الذهب الاحمر اللين، فيها اشجار كلها ذهب (...). ودخلت فيها ارضاً من فضة بيضاء في الصورة، ذات شجر وأنهار وثمر شهّي، كل ذلك فضة (...). ودخلت فيها ارضاً من الكافور الابيض (...). وكل ارض من هذه الارضين التي هي اماكن في هذه الارض الكبيرة، لو جعلت السماء فيها لكانت حلقة في فلاة بالنسبة إليها (...). ويصف لنا ابن عربي بعد ذلك كيف يتناسل سكان «ارض الحقيقة» فهم ينتون فيها كسائر النبات من غير تناسل، بل يتكونون من ارضها (...). وسرعة مشيهم في البر والبحر اسرع من إدراك البصر للمبصر». وتعتبر هذه الارض كما اسلفنا، عالم المتناقضات والاضداد، تتحقّق فيها المحالات العقلية، كوجود الجسم الواحد في مكانين، او كبحر التراب، او السفينة التي تتكوّن تلقائياً من الحجارة المتألّفة والمتناغمة مغناطيسياً الخ، وما ذلك سوى دليل على قدرة الله وعظمته، فهو وحده «قادر على جمع الضدّين»<sup>(62)</sup>. ويلمس القارئ بوضوح كيف يستلهم ابن عربي الترميزات القرآنية في صفات النعيم الاخروي المادية ومنها المسك والكافور والعنبر والاولاي والحلي الفضية واللؤلؤ المنثور والثياب الحريرية (سندس وإستبرق)، والتي تلخص لنا سورة «الدهر» جانباً كبيراً منها<sup>(63)</sup>، وفي وصف الجنة التي «عرضها السموات والارض» ومجاز نبات الانسان من الارض، كما رأينا. لكنها في عالم ابن عربي تتفاعل وتحوّل في رؤى ذاتية لا واعية تعبّر عن انماط اللذة الروحية والسعادة الابدية. ولكن هذه الانظمة الميثولوجية والهيكلات الارضية العالمية (البداية والحديثة) التي يرجع النص القرآني بعض اصداؤها لا تُبرّر دعاوى المشكّكين حين يتكلمون عن اساطير القرآن، او نسجه وتكراره لاساطير القدامى، ليقرّروا في النهاية ان القرآن الكريم هو نتاج عبقرية محمد. «يقول الذين كفروا إنّ هذا إلاّ اساطير الاولين» (الانعام/25).

ولعل المدينة التي يتحدث عنها ابن عربي، مدينة الاولياء، تقرّبنا من عالم الروح كما تصوّره جمهرة اعلام الصوفية في «مختصر روض الرياحين» للباقي<sup>(64)</sup>، و«جامع كرامات الاولياء» للنبهاي<sup>(65)</sup>. وغيرهما، وحيث نجد



خيام الجنة المصنوعة من الدرّ والياقوت، وبيوتها المبنية على حجارة اللؤلؤ المكنون، ويكّلل الدرّ والجوهر مصراعي باب التوبة الذهبين، بينما يزيّن كرسي سليمان الياقوت واللؤلؤ والزبرجد الاخضر، وتحفّ به اربع نخلات من ذهب، شماريخها من الياقوت الاحمر والزبرجد ايضاً، ويعلوها طاووسان ونسران من ذهب، وغلى جنبي الكرسي أسدان من ذهب، يُجَلّل رأسيهما عمودان من الزبرجد الاخضر، . . . وتصف احدى الكرامات مدينة الاولياء آ إلا من ادرك سن الاربعين من المريدين (بينما يدخلها المرادون في اي وقت شاءوا)، وهم إن ارادوا النزهة ظهرت لهم اينما كانوا، وفي طريقهم إليها (او في طريقها إليهم) نرى الارض تطوي من تحتهم طياً. والحبّ يهتف بهم هيّا، ولا يزالون يسرون حتى ينتهوا الى مدينة مبنية بالذهب والفضة، واشجارها متعانقة، وانهارها رائقة، وفواكهها فائقة، . . . ويمكن القول ان مثل هذه الرؤى الصوفية التي تعتمد اسلوب الإدهاش وتستوحي صورها من المجاز القرآني في وصف النعيم الاخروي تكاد تنسلخ عن الحدس اليقيني العفوي والصادق وتوافق الخيالات الطوباوية المجردة<sup>(66)</sup>.

### ● الاسطورة الكونية النشؤية في التراث الشعبي الاسلامي.

ونجد في مجال القصص الفولكلوري الشعبي عند بعض الاسلاميين مادة زاخرة تصف خلق الكون والسماء والانسان. ففي «قصص الانبياء، المسمى عرائس المجالس» يروي الثعلبي (ابو اسحاق النيسابوري) كيف خلقت الارض والكواكب، ثم ينتقل الى خلق آدم وما جرى له هو وسلالته من الانبياء الى ان يبلغ زمن اصحاب الفيل وقصة ما جرى لهم مع قريش، ويمزج باستمرار المعطيات التاريخية والاسطورية التي وردت في التراث الاسلامي والعربي حول تلك الموضوعات. وفي احدى الاساطير يتحدث الثعلبي عن طبقات الارض التسع، ذاكراً كيف تفصل كل طبق عن الآخر مسيرة خمسمئة عام. واذا كانت الطبقة الاولى لا تثير فضولنا لانها الارض التي نعرفها، فالطبقة الثانية هي مسكن الرياح ومصدرها، في حين تبدو الطبقة الثالثة مأهولة بصنف من البشر تشبه وجوههم وجوه بني آدم بينما تبدو افواههم كأفواه الكلاب، وارجلهم كأرجل البقر، وآذانهم كأذان المعز، واشعارهم كأصواف الضأن، وليس على اجسادهم شيء من الثياب، لكنهم كالملائكة في طاعتهم لله عز وجل. اما الارض الرابعة فتحفل بحجارة الكبريت الجهنمية، وتحتوي الطبقة الخامسة على عقارب اهل النار الخرافية وعلى حيات مثل الاودية. ونصل الى الطبقة السادسة التي تضم دواوين اهل النار واعمالهم وارواحهم الخبيثة، لذلك يسميها الراوي «سجين» . . . وتحتها مباشرة، في الطبقة السابعة، يوجد مسكن ابليس وجنوده، ولعلمهم ينطلقون منها لغواية البشر. . . واما قعر جوف الارض في عمقه الهائل المريع «فكافيك به حديث قارون<sup>(67)</sup> الذي يخسف به الله الارض كل يوم مقدار قامة، فلا يبلغ قعرها الى يوم القيامة<sup>(68)</sup>.

### ● «رسالة جلاء العقول» الاسماعيلية واسطورة «المولود الابداعي»

وبعيداً عن الوحي القرآني والتقليد الاسطوري العربي يجد الباحث ما يشبه اساطير الأولين من الشعوب السامية وغيرها في ما يتعلق بنشأة الانسان الاول من الارض. كما في اسطورة «المولود الابداعي» لعلي بن الوليد<sup>(69)</sup>، التي

تضع عملية تكوين الانسان الاول في دائرة المشيئة والعلم الإلهيين، لكنها لا تلبث ان تتوسع في تفاصيل فلسفية وميتافيزيقية وفلكية (تأثير الكواكب في المصير البشري)، وطبيعية (العناصر وحالاتها)، وإحيائية (مبحث تطور الفرد (Phylogénèse). وهي ترجعنا الى أسطورة الأرض الأم التي اغتذى منها أسلافنا الأوائل، وفيها يلي نص هذه الأسطورة النشوءية الاسماعيلية:

«اجتمعت الكواكب بمشيئة المدبر تعالى، في بيوت اشرافها، وهي افضل حالاتها التي جُبلت عليها، فَسَرَت حَيْثُ اشْعَتْهَا، فمخضت الامهات مخضاً معتدلاً، واصعدت صفو المواليد الثلاثة ممتزجاً بصفو الامهات الاربع، بخاراً معتدلاً لطيفاً بحسب الشكل الفلكي.

وقد تهيأت الارض واعتدلت، ولطفتها مياه الامطار، وخذدتها خدداً معتدلة، عميقة، متوسطة، بقي فيها صفو الامطار الكائنة في الارض أولاً، والتي ظلت خلاصتها كامنة فيها.

ثم ان البخار المتلطف، المجتمع لطائف الامهات والمواليد، انعصر انعصاراً لطيفاً، فأنحل مطراً نظير المنيّ، فوقع في تلك الخدود المتهيئة كتهيؤ ارحام الحيوان.

وكانت العناية الالهية قد حركت تلك المياه البواقي بوساطة الحركة الجرمانية (نسبة الى الاجرام السماوية)، تحريك الإناث قبل ان تُخرج ما عندها من النطف الى الارحام، عند اجتماعها بالذكران، وقبل ان تتهيأ لقبول ما يرد عليها من ذلك الماء.

فالتقى الماءان وامتزجا واعتدلا.

وجعلت اشعة الشمس تدبر تلك المياه، الحرارة الكائنة في عمق الارض تسخنها فترفعها الى اعلى تلك الخدد، والنسيم البارد المعتدل على وجه الارض يضربها ببرده، فيعيدها الى عمق تلك الخدد. وهكذا لبثت بين الصعود والهبوط مدة حتى انعقدت واثرت فيها الكواكب بحسب تدبير المدبر.

وتولاهما كل كوكب شهراً. فأولها زحل وآخرها القمر. ثم عاد التدبير، كرهة اخرى، الى زحل عدة الشهر الثامن، فسكنت تلك الجملة (= المجموعة) الكائنة في تلك الخدد عن كثير من الحركة، وكانت في تلك الحالة شبيهة بالنائم الغافل، الى ان عاد التدبير الى المشتري، السعد الاكبر، فأنشرها وقواها بسرّيان مادته، بحسب إرادة المدبر. فتحرّكت، وقعدت، وتنفسّت من مسامها التي قد تهيأت لها، واستنشقت النسيم المحيي المعتدل، وواصلها روح الحياة الحيّ بوساطته، وازدادت قوّة، وجعلت تغتذي بمسام جسمها من فضلات تلك المياه الدهنية المنعقدة.

فحين وفيّ لها اثنا عشر شهراً، اخرجت تلك الخدد منتصبة قائمة، وتناولت ما دنا منها من النبات، مغتذية مما يصلح ان يكون غذاء للبشر؛ كالتين والعنب وما اشبه ذلك من الفواكه، مما هيأها لها المدبر تعالى، وتقَدّست مقدّته.

وكانت قدرتها وتصرفها وجشها في حالة ابن اربع سنين من مواليد البشر الذين جاءوا من طريق التناسل، وانما كانت حالة المولود الابداعي اعظم، لعظم أبويه: السماء والارض.

وقد تكون من صفو تلك المياه ذكران البشر، ثم نشأ من فضلة ماء الذكر بعد كماله انثى، وكانت اختاً له.

وجرت بينهم المناكحة على حسب ما شرعه لهم صفوتهم من تزويج بعض منهم اخت الآخر.

يلاحظ القارئ العربي بوضوح مدى استيعاب هذه الاسطورة ذات المنحى الباطني لعناصر ومعطيات البيانات السامية التي وصفت جميعها تقريباً، وفي قوالب متنوعة تبعاً للهيئات التي نمت فيها، اقتران السماء بالارض، وشبهت المطر بالسائل المنوي، وتحدثت عن طبيعة آدم الخثوية، وعن تأثير الاسطقسات الكونية الاربعة، ... وصولاً الى تخطي مرحلة الرهاق (Inceste) أو ارتكاب المحرم وظاهرة تبادل النساء بين القبائل والتي تعتبر البنية الاجتماعية الاساسية التي ادت الى عُرف المصاهرة من خارج القبيلة (Exogamie) واقامة العلاقات الاجتماعية بين مختلف الشعوب البدائية، كما يرى علماء الإناسة المحدثين. كل ذلك يظهر لنا عبقرية المخيلة العربية، ومدى التطور الذي بلغته العقلية الاسطورية العربية بفضل الفكر الاسلامي والصورة القرآنية.

### ● العالم الديمائي ورموزه الباطنية، السحرية الدينية، والمسارية

يشكل العالم الديمائي بغناه الميثولوجي اللاحدود وبإحجاءاته المخفورة حاجساً يشغل المخيلة البشرية في كل العصور. ولعله لا ينكشف للذي اتخذ مسكنه «فوق المغارة» العميقة والمكتنفة بالأسرار، والتي يوحى ضجيجها الغريب والأهم بالخوف، ويبعث خرافات التطير. لكننا اذا ولجنا الى هذه الطبقات السفلية من الارض، تصعقنا الدهشة لرؤية قاعات بلورية مشعة بالاحجار الكريمة، او لملاقاة شعوب التروغلوديت الخرافية او تنوء في اروقة ودهاليز لا يُستغرب ان نلتقي خلالها بالساحرات والجنيات او الحيوانات الاسطورية المكلفة بحراسة هذه الكنوز المادية الفائقة الوصف. لذلك يحتاج الانسان للكثير من الشجاعة لبلوغ «القصر»، او «المعبد» الجوفي، وقد يوقفه سربروس (Cerbère)، كلب جهنم الوحشي وحارس بابها برؤوسه الثلاثة وصوته الفولاذي الذي ترهب اصداؤه اجسر المغامرين<sup>(70)</sup>، وينبغي على تيزيه (Thésée) ان يقهر العملاق الاسطوري «مينوتور» (Minotaure) في متاهة كريت (Labyrinth)<sup>(71)</sup> بأروقتها المضللة، فلا بد له من مساعدة خارجية، او عون إلهي يضعه على الطريق الصحيح لينتصر ويحقق ذاته<sup>(72)</sup>، ولكن ليس قبل ان يتعذب بفكره وجسده ويثبت جدارته بهذه السعادة التي توصل الى المجد او الكمال الوجودي والفكري. ويشير افلاطون في الكتاب السابع من الجمهورية وفي «فيدرا» الى هذه الرمزية المسارية مبيناً أنه لا بد من النزول الى جهنم الجوفية المقدسة، ذلك المكان الذي يحف بالأطياف ويعج بالروى المخيفة<sup>(73)</sup>، وان الذي يجتاز هذه النيران المقرسة بسلام يصبح جديراً بالعودة الى سطح الارض والى نور المعرفة. وكان القدماء يعتقدون ان الدفن تحت الارض يساعد على الحلولة الجديدة، وعلى عدم تأخير دورة الحياة الارضية، ويجنب النفس طول العذاب ومرارته. لذلك نرى القديسين والشهداء يُدفنون في مُصلى كنسي تحت الارض، يسمى قبو الكنيسة، وهو اصل كلمة «مغارة» (Crypte → Grotte). ومن باطن الارض يخرج الماء الطهور

المقدس وينساب من منبعه الاصيل، وفي جوفها تتجذر اصول الاشجار التي تبلغ بفروعها السامقة اطراف السماء... .

وتقع الارض في تسلسل الاسطوانات الاربعة بين النار والهواء، ولها وحدها خاصية المقاومة<sup>(74)</sup>. وبين بيار جنيار صعوبة ترتيب هذه العناصر وتنسيقها. فإذا نظرنا الى التتابع الفلكي نحصل على التسلسل: هواء - نار - ماء - ارض. واذا جعلنا القوى الطبيعية تتناقض بحسب قانون التوازن، نحصل على تسلسل آخر: نار - هواء - ماء - ارض. واذا اخذنا بعين الاعتبار الخصائص، ننتهي الى الترتيب الآتي: هواء - ماء - ارض - نار. لكننا بحسب تتابع الفصول نفع على تنسيق مغاير لكل ما سبق: هواء - نار - ارض - ماء، ... . ويُعيّن الخنصر عنصر الارض في تعاليم الطاوية وفي نظرية «اختام اليد». ويرى البعض تطابقاً بين العالم الكبير والعالم الصغير، فيرمز الرأس الى النار، والصدر الى الهواء، والرجلان الى الماء، والبطن الى الارض «الرخوة والخصبة»<sup>(75)</sup>، اذ يخضع البشر للتأثير الفلكي للطبيعة الاولى: الحمل، التوأمين، السمك والعذراء. ويرى هونوريوس ارغوستو دونيسيس ان اللحم البشري مأخوذ من الارض، والدم من الماء، والنفس من الهواء، والحرارة من النار. فالارض دم معدني، وهي روح كل شيء. ويصور بوفون (Buffon) مركز الكرة الارضية كوعاء من الكريستال، اذ «يعكس هذا الاخير، وهو مرآة خفية، الدراما الكونية وتكوين العالم».

ويعتقد بعض العلماء، مثل لابلاس ودوميه والفريد موري وفيغيه ان الارض كرة نارية، وتشير «النظرية الجوفية» (الدالة على وجود صخور بركانية تحجرت في باطن الارض) (Théorie Plutonienne) ان الثلوج والمياه غمرتها بعد هذه المرحلة الاولى. ويرى البعض ان هذا الكوكب مجوف، بينما يذهب آخرون الى ان الاسطوانات الاربعة مندمجة فيه، وان مركزه الداخلي يخضع لحرارة قوية، في حين تؤكد فئة ثالثة من الباحثين ان هذا المركز متجمد وان الحرارة تزداد درجة واحدة كلما نزلنا ثلاثين او اربعين متراً تحت الارض، وفي المقابل يزداد الضغط الى ان يُصبح حوالي 3500 000/كغ في السم المربع الواحد الذي يجعل الرؤيا غير ممكنة في ذلك المكان السحيق من قعر الارض، ويظهر عبقرية مخيلة جول قرن في روايته الشهيرة «رحلة الى مركز الارض»<sup>(76)</sup>.

## ● الهبوط الى جهنم، رؤى تحقيق الذات والخلاص الروحي

وباعتبار ما يمثله العالم الديماسي بالنسبة للانسان (العالم الجسدي، المادي، السفلي) فانه يصبح المكان الامثل لاحتواء جهنم في مجمل الديانات العالمية. وتتكون جهنم في أغلب الأحيان من عدة طبقات، ويزداد العذاب بحسب عمق الطبقة التي يحصل فيها. وهنا ينشط الخيال الاسطوري في تصوير الفجوات المستنة السوداء، والكتل النارية، والانهار او المياه الجليدية، وأنواع العذابات ومدة كل منها، وزبانية جهنم ووسائل التعذيب التي يستخدمونها. هكذا نجد في المعتقدات الصينية الحديثة، وهي مزيج من البوذية والطاوية، أن هناك عشر أماكن جهنمية يُهبط عليها ملوك ياما العشرة، ويسطلق عليهم اسم «ملوك المحاكم العشر» (Che—Tien—Yen Wang). كذلك تبدو جهنم دانت في «الكوميديا الالهية» في صورة قمع جوفي شاسع مؤلف من تسع دوائر تضيق تدريجياً، ويقع الشيطان في وسط الدائرة الاخيرة ويلامس طرف جسمه نقيض الارض والقمع حيث ينتصب جبل

المطهر المكون من سبع مسطحات دائرية. وفي جغرافية دانت (Dante) الاسطورية يقع مدخل هذه الاعماق النيرانية تحت جبل سيون (Sion)، اذ يعتبر دانت اورشليم مركز العالم. وتمثل جهنم أيضاً بطبقاتها السبع العوالم السفلية البدائية والمدنسة في «كتاب النور» العبراني الباطني (La Kabbale). وهي ترمز الى ظلال عوالم النور السبعة الخلاقة، اي الصور المعكوسة للانماط الصعودية السبعة. لذلك تتصل جهنم السابعة بالحدود العلوية و«تطل نوافذها على مملكة النور المقدس»، وتتعبها الارضون السبعة التي توصل الى الفردوس الارضي وبعده الى الفردوس السماوي. ويخترق جهنم الاغريقية نهر الاشرون ورافده الكوسيت (l'Achéron, Le Cocyte) او «نهر البكاء»، بينما يلف نهر الستيكس (Styx) المكان سبع مرات متوالية. وتشرب الارواح بعد هبوطها الى مملكة هديس (Hadès) من مياه النهر النسيان (Le Léthé) لتفقد نهائياً ذكرى ماضيها، فهي محتجزة الى الابد في ظلمات الطرطار. ويكتمل فولكلور جهنم بذكر الحبل او الجسر الذي يَمَكِّن البطل من اجتياز النهر المهيّب، ومركب العبور والنوتي و«تعرفه» رحلة العبور، والحيوان الوحشي الذي يحرس الجسر، والشخص المساعد، وغيرها من العناصر والاشخاص، وهي تتكرر في معظم الديانات العالمية. كما تمثل البراكين ابواب جهنم ومنافذ المقام الناري، واشهرها الفزوف والانتا والهكلا (Vésuve, Etna, Hécla)<sup>(77)</sup>. ويوافق على هذا الاعتقاد الآباء المسيحيون ومنهم غريغوار الكبير، وترتولليان، . . . ويمكن أن تقود المغارة إلى أعماق جهنم، كما يصف الكتاب السادس من «الأنبيد» (L'Enéide) (ملحمة فرجيليوس) هناك يجتاز البطل الغاب المحيط ببحيرة آفرن، ويدخل في مغارة يقضي منها الى عتبة المقام الجهنمي حيث توجد الوحوش الميثولوجية، فيتغلب على سربوس، الكلب الوحشي «ذو الخطم المثلث»، وبذلك يستطيع الاختيار بين الطرطار و«الحقول المختارة» (Champs — Elysées) او «جنة الصالحين» الميثولوجية وهي مملكة النور العذب والخضار السندسي الدائم. كذلك ينفذ تليماك (ابن اوليس) إلى مقام الأشباح ويخرج من مكان غير الذي دخل منه، كما تفعل العرافة في المعبد الاغريقي. وعبر المغارة أيضاً يبلغ بطل لورد بيرون مَنفَرْدُ (Man-fred, 1817) مقام روح الشر آرمسان، ويسلك ذات الطريق بيرجنت (Peer Gynt) بسطل إيسن<sup>(78)</sup> (Ibsen).

وتروي اساطير كثيرة كيف نزل أشخاص من ذوي المرتبة او الخطوة الى جهنم وعادوا ليُخبروا عن اسرارها. ومنهم الملك الخرافي رامبسينيت (Rhampsinite) الذي نزل حياً الى جوف الارض، ولعب بالنرد مع الالهة دميتر (Déméter) التي اهدته فوطه من ذهب لدى عودته الى سطح الارض، كما يذكر هيرودوتس. ويعالج كاسو هذه الظاهرة في «ذكريات الارض» (Cassou, Souvenirs de la terre)، ويشيرون في «الجمهورية» وفي «حلم سيبون». ويتميز نزول القديس الى جهنم بمرافقة ملاك له مكلف بحراسته ومساعدته. وفي خرافة مسيحية يصف احد القديسين «المجامر السبع» التي رآها في جهنم، والتي تقذف بالحمم، والدولاب الناري الذي يدور الف مرة في النهار، وفي كل دورة يُعذَّب الف نفس. ويربط الباطنيون المسيحية بالأورفية، كما يفعل بول لوكور، ويطابقون بين جهنم المسيحية والعبرية وهديس الاغريقي. ويوافقهم على ذلك القديس هونوريوس دوتين، ورابان مور، وكريزوستوم، وغيرهم. ويحلل رينيه غينون (R. Guénon) رمزية هذا الهبوط الى جهنم في دراسته حول «نظرية دانت الباطنية»<sup>(79)</sup> فيرى انه استجماع عام للحالات التي تسبق الحالة الانسانية، اذ تمثل جهنم الحالة الوضيعة في

الكائن، وتعبّر الطقوس الهبوطية عن اتمام (انجاز) وعي الحالات الرفيعة المستوى. وليس الموت إفناء للكائن بل مجرد تحويل للمادة، وكل إعادة تكوين ينبغي ان تمر بفساد مادي مسبق. وهذا الموت الخيالي لا يتحقق الا في احشاء الارض - الام، ونقرأ في التوراة: «وسترهم من جديد كالفيثيق»<sup>(80)</sup>، اي من الموت والدفن. . . . وكأن انسان المادة والشهوة يتطهر ويتحرر من الكوابح المادية كي يدخل في تكوين كل شيء، كما يذكر يونغ. ويحلّل غاستون باشلار هذه الظاهرة بقوله انها «الحاجة الى النفاذ او الولوج الى رحم الاشياء والى رحم الكائنات، وانها اغواء حدس الحرارة الحميمة. فحيث لا تنفذ العين، ولا تدخل اليد، تنساب الحرارة. وهذا الاتصال من الداخل، هذا التجاذب الحراري يجد عند نوباليس رمزه في النزول الى لجة الجبل، الى المغارة والمنجم. . . .»<sup>(81)</sup>.

● المغارة الجوفية المقدسة، وعالم النور البلّوري العجيب

فيها الشهداء والقديسين. وإذا رجعنا الى العصر الحجري القديم نرى البشر يدفنون موتاهم في المغاور تحت الارض، ويدفنون عليهم بروكسيد الحديد الذي يكسوهم باللون الاحمر. ثم اصبحت مكان الدفن المتفق عليه في أعرافهم، فكانوا يوصدون مدخلها في العصر الحجري الاخير. واستمرت هذه الطقوس عبر التاريخ كما رأينا، فيدفن النبي ابراهيم وزوجته سارة في مغارة في مكبلا (Macpela)، في موطن كنعان، وفي ذات المكان يدفن النبي يوسف أباه يعقوب، حسب «سفر التكوين». ذلك ان الميت يصبح في الاعتقاد اليهودي طيناً او ظلاً يهبط الى جوف الارض، الى المغارة المظلمة (Shéol) الموجودة تحت المحيط. ولا تفتح ابواب هذه المغارة الا بفعل كلمات مرتلة سحرية التأثير: «هل وصلت الى ابواب شيول؟ هل رأيت هذه «الابواب السوداء المظلمة»<sup>(85)</sup> ولعل الاموات يظلون احياء تحت الارض، الامر الذي يفسر لنا انجاس طيف الملك صموئيل لدى مناداة العرافة له، نزولاً عند رغبة صوبيل (Saül)<sup>(86)</sup>.

وفي مقابل عالم الموت الدينامي تبرز رمزية الاحجار البلورية التي تختزن النور وتعكسه. وهي تمثل تحدياً لعالم الظلمات، وكم من القصص ترينا حجراً سحرياً مشعاً يضيء قاعة او رواقاً فسيحاً في جوف الارض! ويمثل حجر الحكمة الخيميائي في اللغة الباطنية الحجر الذي يحمل علامة الشمس، وتذكرنا قصته بقصة البحث عن «الغزال المقدس»<sup>(87)</sup>. ومن المفيد ان نذكر في هذا المجال قصة اللؤلؤة الخيمائية، كما وردت في كتاب «خفايا السماء والارض» للراهب اسحق. تروي الخرافة ان عصفوراً ابيض يغطس في عمق البحر بعد ان اخضبه الشمس. وفي الشهر الثامن يلد العصفور طيوراً كانت موجودة في جنبه اليسر، في حين كانت توجد احجار ثمينة في جنبه الايمن. ويسمى هذا العصفور المسحور «العصفور الاكثر صفاءً في جنسه». وكانت اللؤلؤة التي يبدعها من جوفه عشرأ في المرة الاولى، وستين في المرة الثانية، وواحدة فقط في الثالثة. واذا كانت الاحجار الكريمة تعكس صورة الشمس فذلك لأن الشمس تدخل من المغارة في العالم الجوفي، ولان هذه الاحجار المضئفة توجد في جهاز الارض العصبي، ويولدها الندى ذو الطبيعة الكريستالية الشفافة في جوف الارض بتفاعل يستمر ملايين السنين، وبفعل ضغوط وحرارات وبرودات متدرجة. وان الوصول الى مكانها في غاية الصعوبة، وان التقط بعضها في سواقي البرازيل وسيلان ومدغشقر، او فتحت مناجم الياقوت الأزرق (Saphir) في برمانيا، او افرجت صخور في كولومبيا عن اسرارها وكنوزها. وكان يسود الاعتقاد انه لا يمكن اكتشاف مناجمها الا بواسطة كائنات إلهية او ساحرات وارواح، كما يشير مرسال غرائبيه في دراسته حول اساطير الصين القديمة. لذلك يجب ان نستميل الارواح التي تكتنفها بطقوس دينية خاصة. لذلك ايضاً كانت اروقة المناجم في القرون الوسطى تحمل اسماء «الرحلة»، اشارة الى رمزيتها المسارية. وكم هو رائع هذا المجاز الشعري في حدس نوفاليس: «ان عامل المنجم هو منجم معكوس، انه بطل الاعماق المتهيء لتلقي الهبات الساوية وللتحمس بسرور، متخطياً العالم وبؤسه»<sup>(88)</sup>.

وفي ختام هذا الطواف الكوني نعود الى صورة الانسان في ثالث المبادئ الخلافة في الميثولوجيا الصينية، حيث يقع الانسان عند تقاطع الخط العمودي (السماء)، والخط الافقي (الارض)، اي عند تلاقي الفكر والمادة، والسماء والارض، والذكورة والانوثة! الم نفراً في اوفيد (Ovide) ان الانسان وحده قادر على رفع رأسه نحو السماء بينما تطأ قدماء الارض؟ ألم يجعل افلاطون سرّة العالم ومحوره في معبد دلف، مركز طقوس الإله أبولون، معللاً رأيه بوصف

ابولون «المفسر التقليدي للدين»، وبأن هذا الأخير «استقر في وسط، وفي سرّة الارض، هداية الجنس البشري»؟ وغني عن البيان أهمية التبادل بين العالمين، السماوي والارضي، في الميثولوجيا اليونانية وفي سائر المعتقدات والاديان. وقد تبين لنا انه اذا كانت الارض راعية القوانين فان آلهة السماء هي مؤسسة القوانين الطبيعية والاجتماعية والتقاليد والاعراف اثناء اقامتها القصيرة على هذه الارض في العصور الاسطورية الغابرة (In Illo Tempore)، وهي اضافة الى ذلك، تسهر على حسن تطبيقها، وتعاقب بالبرق والصاعقة من يخالفها. وقد رسم لنا بول ديال Paul Diel تصميماً جغرافياً نفسياً للرموز، يمثل فيه اديم الارض المسطح الانسان الواعي، بينما يجسد العالم الديماسي بشياطينه ووحوشه وآلهته الشريرة اللاوعي الانساني. اما الوجدان (الوعي) الكلي والسامي فترمز اليه الذرى الاكثر ارتفاعاً وقرباً من السماء. بذلك تصبح الارض بكليتها رمزاً للوجدان ووضع النزاعي، اي رمزاً للرغبة الارضية وامكانات تساميتها وانحرافها وفسادها، وتعبير آخر، حلبة صراعات الوجدان في الكائن البشري. كذلك تتخطى السماء جغرافيتها الخارجية - الظاهرية (او الظاهرية) الى مفاهيم باطنية فتصبح «مستبطنة»، وفي «داخل النفس، والعكس ليس صحيحاً»، كما يذكر ابو يعقوب السجستاني، مما يفسر، حسب رأيه، ان الانسان «يقرأ في السماء الاشياء النافعة». فالسما رمز الوجدان، وتستعمل غالباً للتعبير عن المطلق في توق الانسان، والامتلاء في التماسه الروحي، وكأنها المكان المعقول لكمال فكره، او كأنها فكر العالم وروح الكون! ولعل الصاعقة التي تفسر كتمزيق ساطع للسماء، ترمز بوضوح الى هذا الانفتاح الفكري الذي يسمى الوعي الوجداني.

## الحواشي

- (1) A.J. Wensinck, *Tree and Bird as Cosmologic symbols in Western Asia*, Amsterdam, 1921, Vol. 22, P. 15..
  - (2) Mircea Eliade, *Traité d'Histoire des religions*. Paris, Payothèque, 1974, p. 93.
  - (3) الفيتاغورية، نسبة إلى فيثاغوراس، عالم الرياضيات اليوناني، وتنسب اليه مجموعة طقوس مسارية وتأملية، والأورفية، نسبة إلى أورفيوس وبه ترتبط مجموعة شعائر وخفايا عرفانية ودينية.
  - (4) الشمانية هي ديانة منتشرة في آسيا الوسطى بشكل خاص، وينصرف اتباعها إلى عبادة الطبيعة والقوى الخفية. (Le Chamanisme)
  - (5) Mircea Eliade, *Le Chamanisme et les Techniques archaïques de l'extase*, PP.159-175, 253,227-295.
  - (6) Mircea Eliade, «La Nostalgie du Paradis dans les Traditions primitives», Paru dans *Mythes, Rêves et Mystères*, Paris, Goll., «Idées», 1972, PP.78-94.
  - (7) A.M.Hocart, «Flying Through The air», Paru dans *The Life giving myth*, London, 1952., PP.28-32.
  - (8) Geo Widengren, *Muhammad, The Apostle of God and his ascension*, Uppsala—Wiesbaden, 1955.
  - (9) B.Laufer, *The Prehistory of Aviation*, Chicago, 1928.
  - (10) Ibid., P.16.
  - (11) M.Eliade, *Le Chamanisme et les techniques archaïques de l'extase*, Paris, Payot 1978.
  - (12) Mircea Eliade, «Symbolisme de l'ascension et rêves «éveillés»» paru dans *Mythes, rêves et mystères*, pp. 126-154.
  - (13) Mijhima Nikāya, III, P.123. Cité par M.Eliade, *Mythes, rêves, mystères*, p.140.
- حتى أننا نجد في اللغة الاشورية انهم يعبرون عن فعل الموت بأسلوب مجازي رائع إذ يقولون: «تمسك بحبل»؛ وفي اللغة المصرية القديمة تعتبر العبارات الآتية: «تمسك»، «تشبث» أو «تعلق» بالتي هي تلطيف بياني لفعل «مات»! M. Eliade, Ibid, P. 146-147. ويعني «نسلق شجرة» في نصوص هندية كثيرة، امتلاك قوى سحرية وأجنحة خفية ومعرفة غيبية، في حين يبقى الجاهل حسيماً يتخبط في سجن المادة، فليست له «أجنحة» للطيران!



- C.Defremery, Dr. B.R. Sanguinetti, **Voyages d'Ibn Battoutah**, Texte arabe accompagné d'une traduction frs., (14)  
Paris, Société asiatique 1822.Vol. IV, pp. 291-292.
- A.P. Elkin, **Aboriginal man of High Degree**, Sydney 1946- PP.64-65. Cité par M.Eliade, **Méhistophèles et** (15)  
**l'audrogyne**, PP.269-270.
- L. M.Eliade, **Le chamanisme...**, P.133 sq.  
Platon, **Les Lois**, Trad. L.Robin, No 644. Paris, Les Belles Lettres. (16)  
Cité par M.Eliade, «Cordes et marionnettes», dans **Méhistophèles...**, PP. 233-267. (17)  
La Bible, «La Genèse» 12/28. (18)  
m.Eliade, **Le Chamanisme...**, P.127. (19)  
L'Evangile selon saint Paul, II, Corin., 12/2. (20)  
M.Eliade, **Le Yoga. Immortalité et liberté** Paris, Payot, 1972., P.397 sq. (21)  
L'Epopée de Gilgamesh, XII, P.155. (22)  
E.P.Dhorme, **Les Religions de Babylonie et d'Assyrie**, Paris, Mana, III, 1945. (23)  
Ibid., P.68. (24)  
René Dussaud, **Les Religions des Hittites des Hourites des Phéniciens et des Syriens**, Paris, mana, III, 1953. (25)  
L.G.Gontenau, **Manuel d'archéologie orientale**, Paris, 1927.
- James Frazer, **The Worship of Nature**, London, 1926-p.119sq. (26)  
H.Trilles, **Les Pygmées de la Forêt équatoriale**, Paris, 1932... p.74. (27)  
Ibid.. p.77. (28)  
M.Eliade, **Traité d'histoire des religions**, pp.48-49. (29)  
Hésiode, **Théogonie**,. Trad. P.Mazon, Les Belles Lettres, P.126 sq. (30)  
Homère, **Hymnes**, «A la Terre», I,sq. Trad. J Humbert. (31)  
Eschyles, **Choéphores**, VV. 127-128. (32)  
M.Eliade, **Traité d'histoire des religions**, pp. 214-216. (33)  
J. Frazer, **Adonis**, Trad, Fr., éd. haffont, p.67. (34)  
A. Dieterich, **Mutter Erde**, Berlin, 1925. cité par M.Eliade, **Traité...**, p.216 sq. (35)  
Saint Augustin, **La Cité de Dieu**, IV 2. (36)  
H.J.Rose, **Primitive Culture in Italy**, London, 1926, P.133. (37)  
Marie Delcourt, **Stérilités mystérieuses et naissances maléfiques dans l'antiquité classique**, Paris, 1938-P.64. (38)  
Juvénal, **Poésies**, XV, P.140 Trad. Française, ed. Le Belles Lettres. (39)  
James G.Frazer, **Folklore in The Old Testament**, London, 1918.-II, p.33. (40)  
Aitareya Brahmana, II,6,13. (41)  
Cité par M.Eliade, **Traité**, p.218.  
كانت شواهد المقابر القديمة تشير الى فرحة الانسان ان يدفن في ارضه او في موطنه. (42)
- Hic natus, hic situs est
- Hic situs est Patriae
- Sophocles, **Oedipe-Roi**, «Prologue». (43)  
Hésiode, **Les Travaux et les Jours**, Trad. Paul Mazon, Paris, éd. Les Belles Lettres pp. 225-237. (44)  
Eschyles, **Sept Contre Thèbes**, V.750 sq L.Sophocles, **Oedipe-Roi**, V.1210,... et **Les Trachiniennes**, V.30 sq. (45)  
R. Briffault, **The Mothers**, London, 1927, vol III, p.55sq (46)  
L.Lucien Lévy—Bruhl, **L'Expérience mystique et les symbols chez les primitifs** Paris, 1938.— p. 254 sq.  
وما يدل على اصالة هذه الظاهرة وعمق انتشارها ان ذات اللفظة تعني «المعول» و«قضب الذكر» في بعض اللغات الآسيوية وقد (47)  
انتقلت هذه المعادلة الى الفنون التعبيرية واستمرت آثارها في الادب الشعبي الاوربي، ونجدها مثلاً في تعريف رابليه  
Rabelais, **Gargantua**, II, Chap.1er. . «المعول الذي نسبه فلاح الطبيعة».  
F.Rabelais, **Gargantua**, II, Chap.1er. (48)  
R.Smith, **Religion of The Semites**, London, 1926.— pp.108,536,537. (49)  
L.S.Langdon, **Semitic mythology**, London, 1923.— p.99.  
et E.P.Dhorme, «La Terre-Mère Chez les Assyriens....»  
J.G.Frazer, **The Magic King**, I,pp.469 sq., 480 sq. (50)  
Homère, **L'Odyssée**, V, 125. (51)  
J.G. Frazer, **Spirits of The Corn**, I, p.265 sq. (52)  
A.Loisy, **Essai sur le sacrifice**, pp.237-238. (53)  
J.G.Frazer, **The Spirits of The Corn**, I,pp.175 sq et 210 sq.

- (54) Berhadaraniaka-Upanishad, VI, 4,20.et VI, 4, 21. Cité Par M.Eliade, *Traité....*, P.345- L.Krappe, *Mythologies Universelles*, p. 370
- (55) Handy, *Polynesian Religion*, p.12sq.
- (56) W.Crooke, *The Holi*, p.75sq.
- (57) T.J. Arne, *La Suède et l'Orient*, Trad.F. Uppsala, 1964-p.216.
- (58) J.G.Frazer, *The Worship of Nature* London, 1926-pp. 427-428.
- (59) F.H. Cushing, *Zuñi Folk Tales* New York, 1901.
- (60) محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكيّة، الجزء الثالث، ص 234.
- (61) المرجع السابق، ص 241-250.
- (62) المرجع السابق، ج 1/ص 126-130.
- (63) القرآن الكريم، سورة الدهر/21-5. «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً (...). ويُطاف عليهم بأنية من فضة واكواب كانت قواريراً. قوارير من فضة قدروها تقديراً، ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عينا فيها تسمى سلسيلاً، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً مشوراً (...). عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً».
- (64) اليافعي مختصر روض الرياضين، ط البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.
- (65) يوسف اسماعيل النهاني، جامع كرامات الاولياء، القاهرة، المطبعة الميمنية، 1329 هـ.
- (66) د. مصطفى الجزوي، من الاساطير العربية، دار الطليعة، بيروت، 1980 316 ص. - ص 36-37.
- (67) انظر القرآن الكريم، سورة القصص، الآيات 76-82.
- (68) الثعلبي، قصص الانبياء، المسمى عرائس المجالس، القاهرة، مكتبة الجمهورية العربية، 1356 هـ - 1936 م. ص 5-7.
- (69) علي بن الوليد (ت سنة 612 م)، في منتخبات إسماعيلية، دمشق، 1958. ص 105-106.
- (70) وتُسمّى الاسطورة الجرمانية «الكلب غارم» (Garm).
- (71) لا تخلو ميثولوجيا من صورة المناهة التي توصل العارف او البطل المغامر إلى مكان مركزي يكمن فيه الوحش المفترس او العملاق الشرير. ولعل أول وصف للمناهة وصلنا هو ذلك الذي نجده في كتاب المؤرخ والاديب اللاتيني بلين (Pline, *Histoire naturelle*, XXXVI, XIX,13.) ويحتجز ديدال (Dédale) وحش المينوتور في مناهة كريت، تلبية لرغبة مينوس (Minos) قاضي جهنم. ولولا مساعدة اريان لما استطاع تزييه التغلب على الوحش الذي قضى قبله على مغامرين لم يفظنوا للمعنى الروحي لرحلتهم. اما مناهة مصر فكانت مبنية في جزيرة مويريس (Moeris)، ويذكر «كتاب الموق» ان روح الميت تحتجاز المناهة وتقودها انوبيس، وتصل الى المحكمة حيث ينتظرها اوزيريس ومعاونيه القضاة، بفضل سلك مرشد كما هي الحال في مناهة كريت. ويشير سترابون وهيرودوتس وديودورس الصقلي انها كانت تحتوي على ثلاثة آلاف غرفة، وان نواويس الملوك كانت توجد في الطابق السفلي منها.
- (72) يستعين تزييه كما اشرنا بسلك اريان، اخت فيدرا، الذي يقوده الى منفذ المناه.
- (73) تبدو جهنم في الميثولوجيا اليونانية محاطة بهالة من التهويل والقداسة، ويحيط بها نهر الستيكس (Styx) المرعب والذي تُسمم مياهه الرجال والدواب، وتحطم المعادن، وله خصائص سحرية ايضاً، فقد غطّست فيه الإلهة تيسس إنها آشيل لجعله معصوماً من الجراح. وهو احد اذرع المحيط العشر (Océan)، ويلفّ جهنم الميثولوجية في تسع دورات جاعلاً الخروج منها مستحيلاً، حسب رواية فرجيليوس. ويهيمن الإله هديس Hadès على العالم الديماسي الاغريقي (جهنم والطرطار Tartare) وهو معروف بوحشيته إذ لا يدع احداً من اطياف الموتى يعود الى عالم الاحياء، ويساعده في ذلك شياطين وأبالسة كثيرون، وتشاركه في السلطة برسفونية الرهيبة والقاسية ايضاً. ويعني اسم هديس في اليونانية «غير المنظور». وكان يُخشى من تسميته لعدم إشارة غضبه، فكان يُدعى بلوتون (Pluton) اي «الغني» إشارة الى غنى الارض ومناجها الثمينة، لذلك يمثل هديس غالباً وهو يحمل «قرن الوفرة»، رمز هذا الغنى، ويُعتبر عالم الطرطار ابعد مكان في قعر الارض، ويوجد تحت جهنم، كما يذكر هوميروس وهسيودس. وتوجد بين جهنم والطرطار ذات المسافة التي بين السماء والارض، حسب الاسطورة الإفريقية. وهو مكان ترهبه آلهة الاولمب التي كانت تحتجز اعداؤها في اعماقه السحيقة للتخلص منهم. ثم اصبح الطرطار تدريجياً جهنم نفسها في المخيلة اليونانية

- (74) يحلل مرفريك طبيعة هذا التسلسل في كتابه  
Marvéric, *La Réforme des bases de l'astrologie traditionnelle*, Leclerc, 1912
- (75) هذا ما تعتقده القديسة هيلدغارد، بحسب رواية ماري - مدلين دافي في كتابها: مقالة في رمزية الفن المسيحي *Essai sur la Symbolique romane*, Flammarion, 1955, pp.107, et 127-134.
- (76) ويمكن استنتاج ذات التوافقي والتطابق في كتاب لوكريس Lucrèce, *De Natura Rerum*  
هذه التفاصيل تدخل في التصور العلمي وفرضياته، ولعلها تساعد القارئ على المقارنة بين هذا التصور والخيال الباطني والديني - السحري في هذا المجال. وبالإمكان إضافة بعض الأيضاحات في هذه الحاشية حول تركيب الأرض وبنيتها من منظور علمي. فالقشرة الأرضية الرقيقة (Siap) مكونة من السيليسيوم والالومنيوم، وتأتي بعدها طبقة سهاكتها 3000 كلم (Sima) مكونة من السيليسيوم والمغنيزيوم. وتزداد الكثافة المادية باقترابنا من مركز الكرة الأرضية، وتنقل من 3/ إلى 6/. ولعل كثافة النواة السائلة، وسهاكتها 2000 كلم. تعادل الـ 10/، في حين توجد كتلة مركزية صلبة كثافتها حوالي 17/. وتختلف سهاكة القشرة الأرضية حسب فرضيات الباحثين، فيجعلها البعض بين 120/ و 180/ كلم. وآخرون بين 1300/ و 1600/ كلم. ويُقدّر كلود لويس فسان أن سهاكة نواة الأرض تعادل 3000/ كلم/ وأن كثافتها تساوي 33,5. . . . اما عُمر الأرض فهو متنازع بين تقديرات وتحمينات متباعدة، بل متناقضة أحياناً فمن العلماء من يرى أنه لا يتعدى الـ 15000 سنة/ بينما يحده بعضهم بحوالي 148/ مليون سنة/، او يضاعفه آخرون حتى يصلوا الى رقم خيالي يقرب من الـ 300/ مليون سنة/. وفي ذلك يظن كل منهم أنه يملك الحقيقة او انه اقرب إليها من سواه، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، وما أوتوا من العلم إلا قليلاً، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً.
- Jacques Baurès, *l'Aventure souterraine* Paris, Albin Michel, 1958-p.244 sq.  
— Lucien Rudeaux *La Terre et son histoire*, Paris, P.U.F., 1967.  
— Gamow, *Biographie de la Terre*, Paris, Dunod, 1956.
- (77) وفي الميثولوجيا الاغريقية (واللاتينية) يهيمن الإله الأعرج هلفستوس (Helphaïstos)، وهو إله النار والمعادن، على البراكين التي يعمل في قعرها مع اعوانه السيكلوب، فيصنع السلاح للآلهة، وتروي الاسطورة كيف صنع اسلحة آشيل بطل هوميروس بناءً على طلب الإلهة تيتس، وكيف ساهم في تركيب (او صياغة) بوندورا، حواء الاغريقية، فصنع جسمها من الطين.
- (78) Francis Bar, *Les routes de l'autre monde* Paris, P.U.F., Coll «Muthes et religions», 1946. Chap. VI et VII. «les descentes philosophiques» «l'Initiation d'Enée».
- L.J.P. Bayard, *La Symbolique du monde souterrain*, Chap. VIII, pp. 65-76.
- وسبق ان تحدثنا عن نزول ايزاخاجي (إله السقاء الياباني) الى جهنم للبحث عن زوجته ايزانامي، ونزول اورفيوس الى هديس الاغريقي لإنقاذ زوجته اوريديس، كما ينزل السيد المسيح الى جهنم بعد مأساة الجلجلة.
- (79) R.Guénon, *L'Esotérisme de Dante*, pp. 40,46, et 72 sq.
- (80) Phénix، وهو طائر خرافي زُعم أنه يُعمر خمسة قرون، وبعد ان يحرق نفسه ينبعث من رماده أتم شباباً وجالاً.
- (81) G.Bachelard, *La Psychanalyse du feu*: Paris, P.U.F., P.84 sq.
- (82) وتختلف رمزية هذه الطقوس الهبوطية والصعودية باختلاف الميثولوجيات والبيئات الثقافية، ففي قبيلة آسوراس (Asuras) يسود الاعتقاد بأن عبالقة القبيلة يقيمون مؤقتاً تحت الأرض، وقد فرض عليهم ذلك للتفكير عن ذنوبهم، فهم مكلفون بحراسة الثروات المدفونة تحت جبل مرو (Mérou) لكنهم بعد صعودهم الى سطح الأرض سوف يحتفظون بقدرات سحرية تجعلهم يفوقون سائر الناس.
- (83) René Guénon, *Symboles fondamentaux de la Science Sacrée*, Paris, Gall., Collection «Tradition», 19.— pp.
- L. du même auteur, *Le Roi du Monde*,
- (84) J.P. Bayard, *La Symbolique du monde souterrain*, pp. 77-81.
- (85) *La Bible*, Job, XXXVIII, 17.
- (86) *La Bible*, Le Livre des Rois».
- (87) «الغُرال المقدس» (Le Saint Graal)، هو إناء من الزمرد يعتقد ان السيد المسيح استخدمه اثناء «العشاء الاخير» مع أتباعه، والذي جمع فيه جوزيف داريماسي الدم الذي سال من جبين يسوع المسيح بعد ان ثقبه «قائد المئة» الروماني. وتصفه قصص فرسان الملك آرثور في القرون الوسطى بأنه كان محتجزاً في قصر الملك الصياد الذي يظهر لاحد الفرسان على طريق مباشر

---

سرعان ما يختفي، لأن الفارس يعجز عن النطق بالعبارات السحرية المقدسة، ويتيه الفرسان في اروقة شائكة حول القصر دون الاهتمام الى مدخله. وحده الفارس غلاد (Galaad) يصل إلى المكان المقدس بعد رحلة مسأريّة شاقة وطويلة يظهر خلالها الشجاعة والصبر وتفاقي الزهاد.

Voir Jules Boucher, *Le Symbolisme maçonnique*, p.94 sq.

J.P. Bayard, *La Symbolique du monde souterrain*, Chap. II, «La Terre, sangminéral», pp. 13-23, et Chap (88)  
VII, «Les gemmes du sous-sol», pp.60-64.